المؤتلف والمختلف في التفسير

المؤتلف والمختلف في التفسير

الجزء الثاني : المجلد الاول

إعداد وتأليف
الدكتور أحمد محمد قيس

مؤسس
المركز العلمي للدراسات والأبحاث القرآنية

دار الملاك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ
يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ
فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا
كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ
وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا
تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ
حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ
لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ
نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ
ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ
﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ البقرة: ١٤٢ - ١٥٢ .

مسألة تحويل القبلة وامتحان المسلمين وموضوع البرزخ

أما تفسيرها بحسب:

ابن كثير

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة: ١٤٢ - ١٤٣.

عن أبي إسحاق عن البراء، قال: كان رسول الله (ص) قد صلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبّ أن يوجّه نحو الكعبة، فأنزل اللّه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ البقرة: ١٤٤. قال: فوجّه نحو الكعبة. وقال السّفهاء من النّاس، وهم اليهود: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ فأنزل اللّه ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لمّا هاجر إلى المدينة، أمره اللّه أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بضعة عشر شهرًا، وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو اللّه وينظر إلى السّماء، فأنزل اللّه عزّ وجلّ: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أي: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل اللّه:

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنّه قد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أمر باستقبال الصّخرة من بيت المقدس، فكان بمكّة يصلّي بين الرّكنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلمّا هاجر إلى المدينة تعذّر الجمع بينهما، فأمره اللّه بالتّوجّه إلى بيت المقدس، والمقصود: أنّ التّوجّه إلى بيت المقدس بعد مقدمه صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة، واستمرّ الأمر على ذلك بضعة عشر شهرًا، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجّه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم، عليه السّلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجّه إلى البيت العتيق، فخطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم النّاس، فأعلمهم بذلك. وكان أوّل صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدّم في الصّحيحين من رواية البراء. ووقع عند النّسائيّ من رواية أبي سعيد بن المعلى: أنّها الظّهر؛ وقال: كنت أنا وصاحبي أول من صلى إلى الكعبة، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر، وذلك في مسجد بني سلمة، فسمي مسجد القبلتين؛ إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا الخيار، والأجود كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها، وكان رسول الله (ص) وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها: ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الحج: ١٧٨. وقال الإمام أحمد: قال: قال رسول الله (ص) «يدعى نوح يوم

القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي مرتداً عن دينه وإن كانت لكبيرة، أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾التوبة: ١٢٤ - ١٢٥، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾فصلت: ٤٤ وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾الإسراء: ٨٢ ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول (ص) وأتباعه في ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي: صلاتكم إلى بيتِ المقدسِ قبل

ذلك لا يضيع ثوابها عند اللّه، وفي الصّحيح من حديث أبي إسحاق السّبيعي، عن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلّون نحو بيت المقدس فقال النّاس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل اللّه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡ ﴾. ورواه التِّرمذيّ عن ابن عبّاس وصحّحه.

وقال ابن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡ ﴾ أي: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيّكم، واتّباعه إلى القبلة الأخرى. أي: ليعطيكم أجرهما جميعًا. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٤.

قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لمّا هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره اللّه أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بضعة عشر شهرًا، وكان يحبّ قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى اللّه وينظر إلى السّماء، فأنزل اللّه: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ ﴾ وقال: ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾ وقال اللّه تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ﴾.

عن ابن عبّاس: قال: كان النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السّماء فأنزل اللّه: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب، يؤم به جبرائيل عليه السّلام.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال شطره قبله؛ ثم قال: صحيح الإسناد، وكما تقدم في الحديث الآخر «ما بين المشرق والمغرب قبلة» وقال القرطبي: روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله (ص) قال: «البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي».

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله (ص) وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٤٥.

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وأنّه لو أقام عليهم كلّ دليل على صحّة ما جاءهم به، لما اتّبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ يونس: ٩٦ - ٩٧، ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ وقوله ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدّة متابعة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم لما أمره اللّه تعالى به، وأنّه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضًا مستمسك بأمر اللّه وطاعته واتّباع مرضاته، وأنّه لا يتّبع أهواءهم في جميع أحواله، وما كان متوجّهًا إلى بيت المقدس؛ لأنّها قبلة

اليهود، وإنّما ذلك عن أمر اللّه تعالى. ثمّ حذّر تعالى عن مخالفة الحقّ الذي يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإنّ العالم الحجّة عليه أقوم من غيره. ولهذا قال مخاطبًا للرّسول، والمراد الأمّة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ البقرة ١٤٦ - ١٤٧.

يخبر تعالى أنّ علماء أهل الكتاب يعرفون صحّة ما جاءهم به الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحّة الشّيء بهذا، كما جاء في الحديث. أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وسلم قال لرجلٍ معه صغير: "ابنك هذا؟ " قال: نعم يا رسول اللّه، أشهد به. قال: "أما إنّه لا يخفى عليك ولا تخفي عليه».

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والاتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي (ص) ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثم ثبت تعالى نبيه (ص) والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول (ص) هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: ولكل وجهة هو موليها يعني بذلك أهل الأديان، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها؛ وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ المائدة: ٤٨ .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص فيه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازي.

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ يعني مشركي قريش. ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة، أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم، فلم يرجع عنه والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس، أولا لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة؛ فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له، وقوله؛ ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، وقوله:

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ عطف على ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، أي؛ لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ البقرة: ١٥٠ - ١٥٢ .

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرّسول محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم إليهم، يتلو عليهم آيات اللّه مبيّنات ويزكّيهم، أي: يطهّرهم من رذائل الأخلاق ودنس النّفوس وأفعال الجاهليّة، ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور، ويعلّمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السّنّة ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهليّة الجهلاء يسفهون بالقول، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء. فصاروا أعمق النّاس علمًا، وأبرّهم قلوبًا، وأقلّهم تكلّفًا، وأصدقهم لهجةً. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ آل عمران: ١٦٤. الآية؛ وذمّ من لم يعرف قدر هذه النّعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ إبراهيم : ٢٨، قال ابن عبّاس: يعني بنعمة اللّه محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم؛ ولهذا ندب اللّه المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النّعمة ومقابلتها بذكره وشكره، وقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾.

عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني»، وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ آل عمران:١٠٢ قال: هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ قال: ذكر الله إياكم أكبرمن ذكركم إياه. وفي الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ ﴾إبراهيم : ٧، وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله (ص) قال: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه».

مغنية:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ﴾. كان الأنبياء السابقون يصلون إلى بيت المقدس، وقد صلى النبي (ص) إليه بأمر الله أمداً غير قصير، ولكنه (ص) كان يتمنى لو يحول الله القبلة إلى الكعبة، وحقق الله تعالى أمنيته، كما يأتي قريباً.

والمراد بالسّفهاء اليهود، لأنهم هم الذين عابوا على المسلمين رجوعهم في الصلاة عن بيت المقدس إلى الكعبة، ولفظة ﴿ سَيَقُولُ ﴾ تدل بظاهرها على إعلام الله سبحانه نبيه الأكرم بقول السفهاء قبل وقوعه منهم، وصدوره عنهم، أما قول من قال بأن لفظة ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وإن كان ظاهرها الاستقبال، ولكن المراد منها الماضي، وإن الله خاطب بها رسوله بعد أن قال السفهاء، لا قبل أن يقولوا، وجاءت بصيغة المستقبل إيحاءً بأن ما قالوه كان مقدراً ومترقباً، أما هذا القول فإنه تأويل للظاهر من غير دليل يدل عليه، أو ضرورة

تدعو إليه.

وعلى كلٍ، فلقد أمر الله سبحانه رسوله الأعظم محمداً (ص) أن يُجيب هؤلاء السفهاء بأن ﴿لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أي أن الجهات كلها لله، والكعبة وبيت المقدس إليه سواء. ولكن الحكمة والمصلحة تارة تستدعي أن يهدي من يشاء من عباده إلى بيت المقدس، وتارة إلى الكعبة.

لماذا الصلاة إلى جهة معينة؟

وهنا سؤال يردده كثيرون، وهو: لماذا تجب الصلاة إلى جهة معينة، ولا تصح إلا إليها، مع العلم بأن الله سبحانه في كل مكان، وأنه قال صراحة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ الآية ١١٥ البقرة.

الجواب: أولاً أن الله سبحانه قال أيضاً: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، وهذه الآية ١٤٤ من سورة البقرة تفسير وبيان للآية ١١٥ وإن المراد بها التوجه إلى أية جهة تكون في الصلاة المستحبة حال المشي والركوب، وفي صلاة المتحير الذي يجهل القبلة، والمراد بآية ١٤٤ الاتجاه في الصلاة الواجبة، وتقدم بيان ذلك مفصلاً في الآية ١١٥.

ثانياً: إن صحة الصلاة تتوقف على وجود الأمر بها من الله سبحانه، وعلى هذا الأصل لا بد أن ننظر: هل تعلق الأمر بالصلاة إلى أية جهة أردنا، أو إلى جهة خاصة، فإن كان الأول صحت الصلاة إلى أية جهة تكون. وإن كان الثاني فلا تصح إلا إلى الجهة المأمور بها، سواء أكانت الكعبة أو بيت المقدس، أو غيرهما.. وبكلمة أن امتثال الأمر شيء، ووجود الله في كل مكان شيء آخر.. إن العبادة من الأمور «التوقيفية» على تعبير الفقهاء، أي تتوقف على بيان الله لها بلسان نبيّه، ولا مجال فيها للظنون والاحتمالات، ولا لأي شيء إلا النص الصريح الصحيح.. وقد أمر الله المسلمين أولاً أن يصلوا إلى بيت المقدس،

فلو صلوا إلى الكعبة لم يقبل منهم، ثم أمرهم أن يتحولوا إلى الكعبة، ولو صلوا إلى بيت المقدس بعد هذا لم يقبل منهم مع أنهما له ومنه.. ذلك أن معيار صحة الصلاة موافقتها للأمر بجميع أجزائها وشروطها، كما أن معيار فسادها مخالفة الأمر.

جعلناكم أمة وسطاً الآية ١٤٣:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ١٤٣.

قال الرسول الأعظم (ص): خير الأمور أوسطها، وقال: عليكم بالنمط الأوسط، ويأتي الوسط بمعنى العدل، تقول: فلان وسَط أو متوسط في أخلاقه، أي معتدل فيها، والعدل والخير متقاربان، والمراد بالوسط هنا أن الله سبحانه جعل دين المسلمين معتدلاً في العقيدة والأخلاق، أما العقيدة فلا شرك فيها ولا إلحاد، بل توحيد، وأما الأخلاق فلا مادية فقط، ولا روحية فقط، بل من هذه وتلك بشرط التعادل والتكامل.

المعنى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾. هذه الجملة بيان لقوله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ووجه البيان أن الله سبحانه قد أنعم على أتباع محمد (ص) بالهداية، وأبرز مظهر لهذه الهداية أنه جعلهم في الدين معتدلين متوسطين بين الإفراط الذي هو الزيادة، كتعدد الآلهة، وبين التفريط الذي هو النقص، كالإلحاد.. هذا من جهة العقيدة، وأما الاعتدال في الأخلاق فقد جمع لهم في تعاليمه وتوجيهاته بين حق الروح، وحق الجسد، فلا روحانية

مقترة، ولا مادية مسرفة، بل تعادل وتوازن بينهما.

وقد استدل البعض بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، استدل به على حجة الإجماع، وهو استدلال في غير محله، لأن الآية لم ترد لبيان الإجماع، وأنه حجة، أو ليس بحجة.

وقال آخرون: إن قوله سبحانه هذا يدل على أن كل مسلم عادل بطبيعته.. وهذا القول باطل من الأساس، لأن العدالة من الموضوعات التي لا تثبت إلا بالحس أو البينة.

التكامل والتعادل في الإسلام:

لما كان الإنسان مكوناً من جسم ترابي فانٍ، ومن سر إلهي خالد، وهو الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾الإسراء: ٨٥. ولما كان لكل منهما مطالب وحاجات، لذلك جاءت تشريعات الإسلام وتوجيهاته على أساس الأمرين وتنظيمهما معاً دون أن يطغى أحدهما على الآخر. وبكلمة: للإنسان جزءان، فإهمال أحدهما إهمال له بالذات.

لقد حرم الإسلام الرهبانية، وإرهاق النفس بالقضاء على الطبيعة، كما حرم الخبائث والإسراف في الشهوات، والترف على حساب الغير.. وأحل زينة الحياة ومتعها من الأكل الطيب، واللبس الطيب، وما إليهما.. ومن يستعرض آيات القرآن يجد أن الدنيا كلها خلقت من أجل حياة راضية مرضية عند الجميع، وأن الانكماش عنها انكماش عن الدين، كما أن التكالب على احتكارها وحرمان الغير فساد في الأرض، وخطر على المجتمع كله.. وأفضل الأرزاق كلها عند الإسلام ما كان بكدّ اليمين، وعرق الجبين.

قال أنس: كنا مع رسول الله (ص) في سفر، ومنا الصائم، ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً في يوم حار، فسقط الصائمون، وقام المفطرون بخدمتهم. فقال رسول الله (ص): ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله.

هذا هو الوسط والعدل الذي يرتكز عليه الإسلام، ويدعو إليه، لا عبادة تقعد بك عن السعي والعمل، ولا شراسة في التكالب تصرفك عن الله وعبادته.

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾. إن معاني الكلمات المفردة واضحة، وكذا المعنى العام للمركب منها.. ولكن الإشكال والغموض في تعيين ما نشهد به نحن المسلمين على غيرنا.. أي شيء هو؟ إن الرسول يشهد غداً على من خالف منا بأنه لمَ يعمل بالإسلام وأحكامه، فهل نشهد نحن يوم القيامة على غير المسلمين بأنهم خالفوا الكتاب والسنة؟.. وقد تعددت أقوال المفسرين في ذلك، وتضاربت، ولم تركن نفسي إلى شيء منها.

والذي أميل إليه أن علماء المسلمين خاصة مكلفون ديناً بأن يبلغوا رسالة محمد (ص) على وجهها للناس، سواء منهم المسلم الجاهل، وغير المسلم.. فمن قام بهذا الواجب المقدس من العلماء يصبح شاهداً على من بلغه الرسالة ولم يعمل بها، ومن أهمل من العلماء ولم يبلغ فإن محمداً (ص) يشهد عليه غداً أمام الله أنه قد خان الرسالة بعد أن عرفها وحملها..

وهكذا نحن العلماء مسؤولون أمام الله ورسوله عن بث الدعوة الإسلامية بين أهل الأديان بالحكمة والموعظة الحسنة، وعن تعليم الأحكام لمن يجهلها من المسلمين.. ومن قصّر في هذا الواجب شهد عليه غداً سيد الكونين شهادة صريحة واضحة بين يدي العزيز الجبار.. والويل كل الويل لمن يشهد عليه رسول الله، ويحكم عليه الله.. هذا إذا أهمل ولم يبشر، فكيف إذا أساء وكان هو السبب الباعث على التشكيك في الدين وأهله.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾. بعد أن أمر الله نبيه الأكرم بالتحول من بيت المقدس إلى الكعبة ارتاب بعض أتباع الرسول (ص) وقالوا: مرة ههنا ومرة ههنا، واستغل اليهود موقف هؤلاء الجهلة، وأخذوا يشككونهم بالنبي. وقد كان اليهود، وما زالوا،

ولن يزالوا أبداً ودائماً أرباب فتن وفساد، وأداة مكر وخداع بطبيعتهم وفطرتهم، يخلقون المشاكل ويضعون العقبات في طريق كل مخلص، ويحولون المجتمعات إن استطاعوا إلى جحيم.. وهكذا يلتقي أعداء الحق دائماً وفي كل عصر مع ضعاف العقول، ويتخذون منهم أداة للكيد والتخريب والفوضى.. وقد وصف الإمام علي هؤلاء أبلغ وصف بقوله: «همج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

وأخبر الله نبيه العظيم بأن الذين شككوا وارتابوا ليسوا بمؤمنين في واقعهم، بل كان إيمانهم زائفاً لا أصيلاً، ولقد محصناهم بالبلاء، ليظهروا على حقيقتهم لك ولغيرك. ﴿وَإِن كَانَتْ – القبلة الجديدة - لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾. وهم أهل الإيمان المستقر الأصيل، لا أهل الإيمان المستعار المموه.

وتسأل: إن الله سبحانه يعلم الشيء قبل وقوعه، فما هو الوجه في قوله لنعلم من يتبع الرسول؟

الجواب: إن المراد ليظهر الطائع والعاصي، ويتميز لدى الناس كلّ بما هو فيه وعليه... وقال أكثر المفسرين إن علم الله بالنسبة إلى الحادث على قسمين: علم به قبل إيجاده، وهو في عالم الغيب، وعلم به بعد إيجاده، وهو في عالم الشهادة، والمراد بالعلم هنا الثاني دون الأول، أي أن الله يريد أن يعلم به حال وجوده، كما علم به حال عدمه.. وهذا تحذلق ولعب بالألفاظ.. فإن علم الله واحد، وعالم الغيب بالنسبة إليه، تماماً كعالم الشهادة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. هذه بشارة من الله لمن ثبت على إيمانه مع الرسول الأعظم (ص) في السراء والضراء، ولم يرتب في أمر من أوامره، ولا نهي من نواهيه.. وقال أكثر المفسرين، أو الكثير منهم: إن السبب لنزول هذه الآية أن جماعة من الأصحاب صلوا مع النبي (ص) إلى القبلة الأولى، ثم ماتوا قبل التحول إلى الثانية، فسئل الرسول

عن صحة صلاتهم؟ فقال الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

ونحن لا نعتمد روايات أسباب النزول إلا القليل البالغ حد اليقين أو الاطمئنان، لأن العلماء لم يهتموا بغربلتها وتمحيصها، كما فعلوا بأحاديث الأحكام، فبقيت على سقمها وعللها.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ البقرة: ١٤٤ - ١٤٥.

قال صاحب مجمع البيان: «روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) أنه قال: تحولت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلى النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس سبعة أشهر، ثم وجهه الله إلى الكعبة، وذلك أن اليهود كانوا يعيرونه رسول الله (ص)، ويقولون له: أنت تابع لنا، تصلي إلى قبلتنا، فاغتم رسول الله (ص) من ذلك غماً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء، ينتظر من الله تعالى أمراً في ذلك، فلما أصبح وحضر وقت الظهر كان في مسجد بني سالم، وصلى فيه من الظهر ركعتين، فنزل عليه جبريل (ع) فأخذ بعضديه، وحوله إلى الكعبة، وأنزل عليه:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فصلى ركعتين إلى بيت المقدس، وركعتين إلى الكعبة».

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾. وصف المسجد بالحرام، حيث يجب تقديسه، ويحرم هتكه، والكعبة جزء من المسجد الحرام، وهو جزء من الحرم الذي يشمل مكة وضواحيها المحددة في كتب الفقه، باب الحج،

مسألة محرمات الإحرام، والصيد في الحرم.

والمعروف من طريقة القرآن الكريم أن كل تكليف شرعي موجه بظاهره لرسول الله (ص) يدخل فيه عموم المكلفين، مثل: «﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ - هود ١١٤». ولا يختص التكليف به وحده إلا مع القرينة، كقوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾الإسراء: ٧٩. فإن لفظة لك تدل على أن هذا التكليف لا يشمل سواه.. وأيضاً من طريقة القرآن أن التكليف الموجه إلى المكلفين يدخل فيه محمد (ص) دون أدنى فرق من هذه الجهة بينه وبين غيره، وعليه فإن الأمة داخلة في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾.

﴿ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾. أي أينما كنتم في بحر أو بر أو سهل أو جبل في الشرق أو في الغرب فعليكم أن تستقبلوا المسجد الحرام بمقدم البدن، ولا يجوز أن تستدبروه في الصلاة، أو تضعوه على اليمين أو الشمال.. وعلى هذا تختلف قبلة المسلمين باختلاف الأقطار، فقد تكون بالنسبة إلى أهل قطر في الغرب، وإلى غيرهم في الشرق، ومن أجل هذا اهتم المسلمون بأمر القبلة، ووضعوا علماً خاصاً يسمى بعلم «سمت القبلة» بخلاف النصارى الذين يلتزمون دائماً جهة الشرق، واليهود جهة الغرب أينما كانوا، حتى ولو استلزم ذلك ادبارهم لبيت المقدس.

وتسأل: إذا كانت الأمة تدخل في خطاب التكليف الموجه للرسول، وخطاب التكليف للأمة يشمل الرسول، فلماذا الجمع بين الخطابين في آية واحدة، وموضوع واحد، وبدون فاصل أيضاً، حيث قال جل من قائل: فول – يا محمد – وجهك شطر المسجد الحرام، وحينما كنتم – أيها المسلمون – فولوّا وجوهكم شطره؟

الجواب: إن التحول كان من الحوادث العظيمة في الإسلام، كما أنه جاء وفقاً لرغبة الرسول الأعظم (ص) فأراد الله سبحانه أن ينبه إلى ذلك ويؤكده

بالتكرار...

هذا، إلى أن التكليف هو بالأصالة لمحمد (ص) لأنه جاء مراعاة لرغبته، وبالتبع لأمته.

الكعبة قبلة لمن هو داخل المسجد الحرام الذي تقع الكعبة فيه، والمسجد قبلة لأهل الحرم، أي لأهل مكة وضواحيها، والحرم أو الجهة التي هو فيها قبلة لأهل المشرق والمغرب.

ويجب استقبال القبلة في الصلاة اليومية، وركعات الاحتياط، والأجزاء المنسية من الصلاة، وسجدتي السهو، ولكل صلاة واجبة بما في ذلك ركعتا الطواف، والصلاة على الميت، ويجب الاستقبال أيضاً بالميت عند احتضاره ودفنه، وأيضاً عند الذبح والنحر.. أما الصلاة المستحبة فيجب الاستقبال بها حال الاستقرار، ولا يجب حال المشي والركوب.

أهل القبلة، وأهل القرآن، وأهل الشهادتين، والمسلمون ألفاظ تترادف على معنى واحد، أما اسم المحمديين فقد اخترعه لنا، وأطلقه علينا أعداء الإسلام، يقصدون بذلك أننا أتباع شخص، لا أهل دين سماوي، تماماً كالبوذيين أتباع بوذا، والزرادشتيين أتباع زرادشت.

ومهما يكن، فإن الغرض من هذه الفقرة التنبيه على أن الأمة الإسلامية على اختلاف بلادها، وألوانها، وألسنتها تجمعها وتوحيد بينها أصول واحدة هي أعز وأغلى من حياتها، لأن المسلمين جميعاً يستهينون بالحياة من أجل تلك الأصول، ولا يستهينون بها من أجل الحياة، ومن تلك الأصول الإيمان بالله وكتابه، وبمحمد (ص) وسنته، والصلاة إلى القبلة.. فمن كفر من يصلي إلى القبلة، وأخرجه من عداد المسلمين فقد أضعف قوة الإسلام، وشتت كلمة المسلمين، وأعان أعداء الدين على الدين، من حيث يريد، أو لا يريد.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ ﴾. المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، لا خصوص اليهود - كما قيل - لأن اللفظ عام، ولا دليل

على التخصيص.. واختلف المفسرون في ضمير (أنه) هل يعود إلى الرسول، أو إلى المسجد الحرام، وسبب الاختلاف أنه قد تقدم ذكر الرسول في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾. وأيضاً تقدم ذكر المسجد الحرام، ونميل نحن إلى إعادته إلى المسجد، لأنه أقرب لفظاً إلى الضمير، والضمير يعود إلى الأقرب، وعليه يكون المعنى أن أهل الكتاب يعلمون حق العلم بأن إبراهيم (ع) أبا الأنبياء وكبيرهم هو الذي رفع قواعد البيت، ولكنهم رفضوه لا لشيء إلا لأنه في يد العرب، وهم سدنته وحماته، ولو لم يكن في يد العرب لكان اليهود ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾. فضلاً عن اتباع ملتك، فأعرض عنهم، حيث لا تجدي معهم حجة ولا منطق بعد أن أعماهم الجهل والتعصب.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ربما طمع بعض أهل الكتاب أن يعود النبي (ص) إلى القبلة التي كان عليها.. فحسم الله طمعهم بقوله: وما أنت بتابع قبلتهم، كما حسم أمل النبي (ص) باتباع قبلته بقوله: ما تبعوا قبلتك.

﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾. اليهود يصلون إلى المغرب، والنصارى إلى المشرق، ولا تترك طائفة ما هي عليه، وتتبع الأخرى، فكيف يتبعون قبلتك يا محمد؟.. بل إن بين فرق اليهود بعضها مع بعض، وبين فرق النصارى كذلك أكثر مما بينهم وبين المسلمين..

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. ومحال أن يتبع النبي (ص) أهواءهم، لأنه معصوم.. ولكن الغرض من هذا النهي أن يتشدد النبي (ص) في معاملته مع اليهود، ويتصلب في موقفه منهم، إذ لا خير في مهادنتهم، ولا أمل في سلمهم، ولا تجدي أية محاولة لردعهم عن الكيد والفساد، لأنهم جبلوا على الشر، ومعاندة الحق، والإساءة لمن أحسن إليهم، وقد مر الكلام في ذلك.

الإسلام وأهل الأديان المتعصبون:

من المعقول جداً أن يختلف العلماء من كل نوع وصنف في مسألة غير دينية، وبعد التذاكر والتدارس يتفقون على ما كانوا فيه مختلفين – ولقد وقع هذا بالفعل – أما إذا اختلف العلماء من أديان شتى في مسألة دينية فاتفاقهم بحكم المحال، حتى ولو قام ألف دليل ودليل، وقد ثبت عند علماء النفس أن تحول الناس عن كيانهم أيسر بكثير من تحولهم عن دينهم.. ذلك أن أكثر الناس يعتمد دينهم على التعصب لدين الآباء والأجداد.. وما عرف عن دين من الأديان أنه نعى على تقليد الآباء غير الإسلام.. فلقد استند في تثبيت أصوله إلى العقل وحده. ومن استعرض آيات القرآن، والأحاديث النبوية يرى أنها تهتم بمتابعة العقل بقدر ما تهتم بالإيمان بالله، لأن هذا الإيمان لا ينفك أبداً عن الهداية بنور العقل السليم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ البقرة: ١٤٦ - ١٤٧.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾. أي أن الكثير من علماء اليهود والنصارى على معرفة صحيحة وجلية بنبوة محمد (ص)، تماماً كمعرفتهم بأبنائهم التي لا شك فيها، ولا ريب، لأن التوراة والإنجيل بشرّا به، وذكراه بنعوته وصفاته التي لا تنطبق على غيره.. قال تعالى في الآية ١٥٧ من الأعراف: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾. وفي الآية ٦ من الصف: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

كان عبدالله بن سلام من أحبار اليهود، ثم أسلم، وقال فيما قال: أنا أعلم بنبوة محمد مني بابني.. فقيل له: ولمَ؟ قال إني لا اشك في محمد أنه نبي،

أما ولدي فلعل والدته خانت.

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. أجل، يكتمونه حتى ولو قرأوا اسم محمد (ص) في اللوح المحفوظ حرصاً على الرئاسة الدنيوية، والمصالح الشخصية.. ولا يختص العناد للحق باليهود والنصارى، لأن السبب عام، والباعث واحد، وقد رأينا بعض الشيوخ ينكر فضل زميله بغياً وحسداً.

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾. النبي (ص) لا يشك أبداً فيما جاءه من ربه، ومحال أن يشك، والله سبحانه يعلم أن نبيه الأكرم لا يشك.. وإنما الغرض بيان أن ما أنزل عليه (ص) غير قابل للشك والريب اطلاقاً، فإذا ما أنكره منكر، وجحده جاحد فما ذاك إلا تعصباً وعناداً.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ البقرة، ١٤٨- ١٥٢.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾. لما ذكر الله القبلة التي أمر المسلمين بالتوجه إليها، وهي الكعبة، وذكر تصميم كل من اليهود والنصارى على اتباع قبلتهم، وتمسكهم بها بيّن أن السر لهذا التصميم والإصرار هو أن كل فريق قد اختار لنفسه جهة يتجه إليها، لا يفارقها أبداً، وإن كان فسادها بيناً كالشمس، فقوله: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أشبه بقوله: كل حزب بما لديهم فرحون.

هذا ما فهمته من ظاهر اللفظ، وقد تعددت في تفسيره الأقوال.

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾. أي دعوا أهل الكتاب والمشركين المعاندين، واتجاهاتهم، وإصرارهم على ضلالهم، وانصرفوا إلى عمل الخير، والمبادرة إليه، فإن مرجعكم غداً إليه سبحانه، فيثيب المحق والمحسن، ويعاقب المبطل المسيء.. وعلى حد تعبير المفسرين أن قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ﴾، هو وعد بالثواب لأهل الطاعة، ووعيد بالعقاب لأهل المعصية. أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بعد هذا الوعد والوعيد فهو دليل وتعليل لإمكان الإتيان بالخلق وبعثهم بعد الموت.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

وتسأل: كرر الله الأمر هنا باستقبال المسجد الحرام ثلاث مرات، وفي الآية ١٤٥ مرتين، فالمجموع خمس مرات دون فاصل طويل.. فما هو الوجه؟.

الجواب: ذكر صاحب المجمع في ذلك ثلاثة أقوال، والرازي خمسة، ومنها الجواب التقليدي الموروث، وهو أن التكرار للتأكيد والاهتمام.. ولم تركن النفس إلى شيء من تلك الأقوال.. وليس لدي شيء سوى أن التكرار هنا قد يكون لمناسبة خاصة استدعاها المقام آنذاك، وقد خفيت علينا، وما أكثر المناسبات والملابسات التي لا تدخل تحت ضابط وحساب.. ومعلوم أن موارد الآيات وبواعثها منها خاص ومنها عام.. وليس لأحد أن يستنبط ويتأول من غير أصل ويعتمد على الحدس والظن.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾. قال كثير من المفسرين: إن النبي (ص) حين كان يصلي إلى بيت المقدس قال المشركون العرب: كيف يدعي محمد أنه على دين إبراهيم، ولا يصلي إلى الكعبة التي كان يصلي إليها إبراهيم وإسماعيل؟ وأن أهل الكتاب قالوا: إن الموجود في كتبنا أن النبي الذي يُبعث من ولد إسماعيل يصلي إلى الكعبة، لا إلى بيت

المقدس، فكيف نعترف بنبوته؟ فكان لكل من المشركين وأهل الكتاب حجة يتذرع بها في زعمه.. فحول الله نبيه إلى الكعبة، وجعلها قبلة دائمة للنبي ولجميع المسلمين إلى يوم الدين، كي لا يبقى لهؤلاء، ولا لأولئك ما يحتجون به.

وظاهر الجملة يدل على أن الصلاة إلى الكعبة تدفع حجة المعترضين من الناس، أما من هم المعترضون من الناس فلم تتعرض الآية لبيانهم.. ومن الجائز أن يكون الوجه في قطع حجة المعترضين أن الكعبة بناها وصلى إليها إبراهيم (ع)، وهو محل وفاق بين الجميع، ومحمد (ص) على سنته.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾. أي لا حجة عليك لواحد من الناس إذا صليت إلا للمبطل المعاند الذي لا يستند في اعتراضه وطعنه إلى برهان عقلي، ولا هدى سماوي، بل لمجرد التعصب والتعنت.

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾. أي لا تخافوا في الحق لومة لائم، فأنا وحدي أملك لكم النفع والضر. وقال ابن عربي في تفسيره: «معنى اخشوني اعرفوا عظمتي لئلا يعظم الكافر عندكم، قال علي أمير المؤمنين (ع): عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم».

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾. أي أنعمت عليكم بالإسلام، وأتممت النعمة بإعطائي إياكم قبلة مستقلة توحد كلمتكم، وتجمع شملكم، وتتجه إليها شعوب العالم من أقطار الأرض على اختلاف ألوانها وألسنتها..

أواصر الأمة الإسلامية:

قال عالم مدقق: تربط الأمة الإسلامية ثلاث أواصر: إله واحد، وكتاب واحد، وقبلة واحدة، يفد إليها المسلمون من أقطار الأرض كل عام، ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة، هي أرض الوطن الروحي وهكذا تجسدت وحدة العقيدة وحدة الشريعة ووحدة الأعلى، ليذكر

المسلمون أنهم وإن تفرقت أقطارهم، واختلفت أنسابهم وألسنتهم وألوانهم تجمعهم جامعة الدين والله والوطن.. وأنه إذا جد الجد وجب إن يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾. للعلماء كلام كثير وطويل في معنى الحكمة.. والذي نفهمه نحن أن كل ما وضع في مكانه اللائق به من قول أو فعل فهو من الحكمة.. وعلى أية حال، فإن المعنى العام لهذه الآية إن الله سبحانه قد أنعم بالقبلة على العرب، كما أنعم عليهم من قبل بمحمد (ص)؛ فهو منهم وفيهم، وقد أنشأهم خلقاً جديداً، فطهرهم من أرجاس الشرك، ومساوئ الأخلاق، وأصبحوا بفضله أصحاب دين سماوي، وشريعة إلهية، أساسها العدل والمساواة، كما أصبحت لهم دولة بسطت جناحيها على نصف المعمورة، حتى لغتهم عظمت وارتفع شأنها بالقرآن وبلاغته.

وليس من شك أنه لولا محمد وآل محمد لم يكن للعرب تاريخ، ولا تراث، ولا شيء سوى الوثنية وقذارتها، والجاهلية وحميتها، ووأد البنات تخلصاً من نفقتها، بل إن محمداً العربي (ص) هو النعمة الكبرى على البشرية كلها، فلقد تقدمت بفضله تقدماً هائلاً وسريعاً في ميدان العلم والحضارة، واعترف بهذه الحقيقة. وسجلها المنصفون من علماء الغرب، ونقلنا طرفاً منها في كتاب «الإسلام والعقل».

ومن أجل النعم الجلى التي أنعم الله بها على العرب دعاهم إلى ذكره وشكره، وحذرهم من كفران النعم والإحسان بقوله: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾. أي أذكروني بالطاعة أذكركم بالأجر والثواب، واشكروني على نعمة الإسلام، وبعثة محمد (ص) الذي هو منكم وفيكم، ولا تكفروا بمخالفة الله ورسوله.. وفي الآية ٧ من سورة إبراهيم: ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾. وقال أمير المؤمنين

(ع): ما كان الله ليفتح باب الشكر، ويغلق عنكم باب الإجابة. وقال: أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد.

شكر النعم:

من بديهيات العقل الأولية إن الشكر لله واجب على كل بالغ عاقل، حتى ولو لم تنزل آية أو ترد رواية بوجوب شكره، لأنه جل وعز هو الخالق الرازق، ومعنى شكره تعالى بعد الاعتقاد بأنه المبدئ والمعيد، وأنه على كل شيء قدير أن نطيع أمره ونهيه، ونفوض الأمور إليه وحده.

هذا، بالنسبة إليه سبحانه، أما إذا أحسن إنسان لإنسان مثله بشيء مادي أو أدبي فهل على من أحسن إليه أن يشكر صاحب الإحسان، بحيث إذا لم يشكره بنحو من الأنحاء يكون عاصياً مستحقاً للعقاب؟

ليس من شك أن شكر الإنسان المحسن على إحسانه راجح في نفسه، بل هو من شعار الطيبين الصالحين، أما الوجوب وعدم جواز الترك فلا دليل عليه، وكل ما ورد في شكر المنعم – غير الله والنبي وأهل بيته – فمحمول على الاستحباب تماماً كقول الإمام أمير المؤمنين (ع): «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه». فإن العفو عمن أساء إليك غير واجب قطعاً، ولكنه مستحب إجماعاً.. أما الكلمة التي تتردد كثيراً على الألسن، وهي: «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق» فإنها حكم أخلاقي لا إلزامي.. وإلا فأية ملازمة بين شكر الخالق، وشكر الخلوق؟

أجل، إن أنكار النعمة، وقولك لمن أحسن إليك: لم تحسن، محرم – لأنه كذب، وبالأولى تحريم الإساءة إليه، لأنها حرام بذاتها، حتى لغير المحسن.. ولكن وجوب الشكر شيء، وحرمة الكذب والإساءة شيء آخر.

سيد قطب:

الحديث في هذا، يكاد يقتصر على حادث تحويل القبلة ، والملابسات التي أحاطت به ، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته ، والأقاويل التي أطلقوها من حوله، ومعالجة آثار هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين ، وفي الصف المسلم على العموم.

ولا توجد رواية قطعية في هذا الحادث ، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل. والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وكان هذا في المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة.

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها - بالإجمال - أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة - وليس في هذا نص قرآني - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول - صلى اللّه عليه وسلم - يرجح أنه أمر غير قرآني. ثم جاء الأمر القرآني الأخير : ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ .. فنسخه.

وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس - وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى - سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام ، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب ، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم.

وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذه حجة عليهم!

وكان الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه ، دون أن ينطق لسانه بشيء ، تأدباً مع اللّه، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه ..

ثمّ نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - :﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.. وتقول الروايات : إن هذا كان في الشهر السادس عشر أو السابع عشر أو السابع عشر من الهجرة ، وإن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة ، كان بعضهم في منتصف صلاة ، فحولوا وجوههم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم ، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة.

عندئذ انطلقت أبواق يهود - وقد عز عليهم أن يتحول محمد - صلى اللّه عليه وسلم - والجماعة المسلمة عن قبلتهم ، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم - انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم .. قالوا لهم : إن كان التوجه - فيما مضى - إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها .. وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر - أو للآيات - لا يصدر من الله ، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله!

وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف الإسلامي من مراجعة ما نزل من القرآن في هذا الموضوع .

أما الآن فنقول كلمة في حكمة تحويل القبلة ، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها. لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى

المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.. فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي .. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة ، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم .. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد ..

حتى إذا استسلم المسلمون ، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام.

ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هي حقيقة الإسلام. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصا لله ، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته .. كما مرّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ..

ولقد كان الحديث عن المسجد الحرام : بنائه وعمارته ، وما أحاط بهما من ملابسات؛ والجدل مع أهل الكتاب والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وقبلته، وعهده ووصيته .. كان هذا الحديث الذي سلف في هذه السورة خير

تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بعد هذه الفترة. فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، ودعوا عنده ذلك الدعاء الطويل ..

يبدو في هذا السياق هو الاتجاه الطبيعي المنطقي مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده مع ربه. فهو الاتجاه الحسي المتساوق مع الاتجاه الشعوري، الذي ينشئه ذلك التاريخ.

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين؛ وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده ، كما عهد به يعقوب - وهو إسرائيل - ولقد علم إبراهيم أن وراثة عهد الله وفضله لا تكون للظالمين.

ولقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت الحرام .. فهو تراث لهما ، يرثه من يرثون عهد الله إليهما .. والأمة المسلمة هي الوارثة لعهد الله مع إبراهيم وإسماعيل ولفضل الله عليهما؛ فطبيعي إذن ومنطقي أن ترث بيت الله في مكة، وأن تتخذ منه قبلة.

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى، الذي يتجه إليه اليهود والنصارى، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة هي التي أشار إليها السياق، وبيناها فيما سبق. فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة، وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم - وهو الإسلام - فيشاركوا في هذه الوراثة ..

الآن يجيء تحويل القبلة في أوانه. تحويلها إلى بيت الله الأول الذي بناه إبراهيم. لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة. حسيها وشعوريها، وراثة الدين، ووراثة القبلة، ووراثة الفضل من الله جميعا.

إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة: الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد؛ والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة. وهذه كتلك لا بد من التميز فيها والاختصاص.

وعلى هذا الأساس الفطري أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها. فهي لا تؤدى بمجرد النية ، ولا بمجرد التوجه الروحي. ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلاً ظاهراً : قياماً واتجاهاً إلى القبلة وتكبيراً وقراءة وركوعاً وسجوداً في الصلاة. وإحراماً من مكان معين ولباساً معيناً وحركة وسعياً ودعاء وتلبية ونحراً وحلقاً في الحج.

ولم يكن بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كي يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه .. فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد ؛كما أنه بدوره ينشىء شعوراً بالامتياز والتفرد.

ثم هو نهى عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحققه في الأرض. والمسلمون هم الأعلون. وهم الأمة الوسط. وهم خير أمة أخرجت للناس. فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم؟ إلا يستمدوها من الله فهم سيستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه!

ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق في التصور ، وأقوم منهج في الحياة. فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه. وما كان تعصباً أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو لا على أي أساس آخر؛ وعلى منهجه هو لا على أي منهج آخر؛ وتحت رايته هو لا تحت أية راية أخرى.

والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه. إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة. فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز. رمز للتميز والاختصاص. تميز التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.

والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده ، فتعرف بأنها الأمة الوسط التي أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها ..

إن هذه العقيدة منهج حياة كامل. وهذا المنهج هو الذي يميز الأمة

المستخلفة الوارثة لتراث العقيدة، الشهيدة على الناس، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله ..

من السياق القرآني ومن سياق الأحداث في المدينة يتضح أن المقصود بالسفهاء هم اليهود. فهم الذين أثاروا الضجة التي أثيرت بمناسبة تحويل القبلة كما أسلفنا. وهم الذين أثاروا هذا التساؤل : ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ وهي المسجد الأقصى.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾أن هذا كان تمهيداً لإعلان تحويل القبلة في المقطع التالي في هذا الدرس ، وأخذاً للطريق على الأقاويل والتساؤلات التي علم الله أن السفهاء سيطلقونها .. أو كان رداً عليها بعد إطلاقها، - كما جاء في الحديث السابق - اتخذ هذه الصيغة للإيحاء بأن ما قالوه كان مقدراً أمره، ومعروفة خطته، ومعدة إجابته. وهي طريقة من طرق الرد أعمق تأثيراً. وهو يبدأ في علاج آثار هذا التساؤل، والرد عليه بتلقين الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - ما يواجههم به، ويقرّ به الحقيقة في نصابها؛ وفي الوقت نفسه يصحح التصور العام للأمور.

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.. إن المشرق لله والمغرب لله. فكل متجه فهو إليه في أي اتجاه. فالجهات والأماكن لا فضل لها في ذاتها.

إنما يفضلها ويخصصها اختيار اللّه وتوجيهه .. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فإذا اختار لعباده وجهة، واختار لهم قبلة، فهي إذن المختارة. وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم ..

ثم يحدث هذه الأمة عن حقيقتها الكبيرة في هذا الكون ، وعن وظيفتها الضخمة في هذه الأرض، وعن مكانها العظيم في هذه البشرية، وعن دورها الأساسي في حياة الناس؛ مما يقتضي أن تكون لها قبلتها الخاصة ، وشخصيتها الخاصة وألا تسمع لأحد إلا لربها الذي اصطفاها لهذا الأمر العظيم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾..

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط؛ وتضع لهم الموازين والقيم؛ وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد؛ وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول : هذا حق منها وهذا باطل. لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم.. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها.

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي..

﴿ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾.. في التصور والاعتقاد.. لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح.

﴿ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾.. في التفكير والشعور .. لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ... ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك .. إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول؛ ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب؛ وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت ويقين.

﴿ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾.. في التنظيم والتنسيق .. لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب؛ وتزاوج بين هذه وتلك.

﴿ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾.. في الارتباطات والعلاقات .. لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة؛ ولا تطلقه

كذلك فرداً أثراً جشعاً لا هم له إلا ذاته .. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء؛ وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه.

﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.. في المكان .. في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها. وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً، وتشهد على الناس جميعاً؛ وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة؛ وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.. في الزمان.. تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها؛ وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها.

وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها؛ وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى؛ وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك.

وإذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها ، بمناسبة تحويلهم الآن عنها :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾..

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ اللّه بها هذه الجماعة الناشئة، التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة، المستخلفة في الأرض تحت راية العقيدة. إنه يريد لها أن تخلص له؛ وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها؛ وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ومن كل رغابها الدفينة؛ وأن تتعرى من كل رداء لبسته في الجاهلية، ومن كل شعار

اتخذته، وأن ينفرد في حسها شعار الإسلام وحده لا يتلبس به شعار آخر، وأن يتوحد المصدر الذي تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر.

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة؛ وشابت عقيدة جدهم إبراهيم شوائب من الشرك، ومن عصبية الجنس، إذ كان البيت يعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس .. واللّه يريده أن يكون بيت الله المقدس، لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره، ولا يتلبس بسمة أخرى غير سمته.

لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى ، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة، ووجههم إلى بيت المقدس، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً؛ ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ثانياً، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله ، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة.

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة.. إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها في القلب شريكاً؛ ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح إنها لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية في أية صورة من الصور.

ولقد علم اللّه أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية ، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس عُلقة ..أمر شاق، ومحاولة عسيرة.. إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق، وإلا أن يعين الله هذا القلب في محاولته فيصله به ويهديه إليه:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات، وأن تنفض عنها تلك الرواسب؛ وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع، حيثما وجهها الله تتجه، وحيثما قادها رسول الله تقاد.

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم. إنهم ليسوا على ضلال، وإن صلاتهم لم تضع، فالله سبحانه لا يعنت العباد، ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه؛ ولا يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي يضاعفها الإيمان ويقويها :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.. إنه يعرف طاقتهم المحدودة، فلا يكلفهم فوق طاقتهم؛ وإنه يهدي المؤمنين، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان، حين تصدق منهم النية، وتصح العزيمة. وإذا كان البلاء مظهراً لحكمته، فاجتياز البلاء فضل رحمته:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾..

بهذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين ..

بعد ذلك يعلن استجابة الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في أمر القبلة ويعلن عن هذه القبلة مع تحذير المسلمين من فتنة يهود، وكشف العوامل الحقيقية الكامنة وراء حملاتهم ودسائسهم ..

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ..

وفي مطلع هذه الآيات نجد تعبيراً مصوراً لحالة النبي - صلى الله عليه وسلم - :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾..

وهو يشي بتلك الرغبة القوية في أن يوجهه ربه إلى قبلة غير القبلة التي كان عليها. بعد ما كثر لجاج اليهود وحجاجهم؛ ووجدوا في اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتلبيس.. فكان - صلى الله عليه وسلم - يقلب وجهه في السماء، ولا يصرح بدعاء، تأدباً مع ربه، وتحرجاً أن يقترح عليه شيئاً، أو أن يقدم بين يديه شيئاً.

ولقد أجابه ربه إلى ما يرضيه. والتعبير عن هذه الاستجابة يشي بتلك الصلة الرحيمة الحانية الودود:

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾..

ثم يعين له هذه القبلة التي علم - سبحانه - أنه يرضاها:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾..قبلة له ولأمته. من معه منها ومن يأتي من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.. من كل اتجاه، في أنحاء الأرض جميعاً.. قبلة واحدة تجمع هذه الأمة وتوحد بينها على اختلاف مواطنها، واختلاف مواقعها من هذه القبلة، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها.. قبلة واحدة، تتجه إليها الأمة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها. فتحس أنها جسم واحد، وكيان واحد، تتجه إلى هدف واحد، وتسعى لتحقيق منهج واحد. منهج ينبثق من كونها جميعاً تعبد إلهاً واحداً ، وتؤمن برسول واحد، وتتجه إلى قبلة واحدة.

وهكذا وحد الله هذه الأمة. وحدها في إلهها ورسولها ودينها وقبلتها.

وحدها على اختلاف المواطن والأجناس والألوان واللغات. ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدة من هذه القواعد كلها؛ ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها؛ ولو تفرقت في مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها.. إنها الوحدة التي تليق ببني الإنسان؛ فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب، وقبلة العبادة.

ثم .. ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة؟

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو بيت الله الأول الذي رفع قواعده إبراهيم. جد هذه الأمة الوارثة وجد المسلمين أجمعين. وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لا مرية فيه ..

ولكنهم مع هذا سيفعلون غير ما يوحيه هذا العلم الذي يعلمونه. فلا على المسلمين منهم؛ فالله هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم:

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.. إنهم لن يقتنعوا بدليل، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل؛ إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾..

فهم في عناد يقوده الهوى، وتؤرثه المصلحة، ويحدوه الغرض..

وفي مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذي ترمز هذه القبلة له، يقرر حقيقة شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وموقفه الطبيعي:

﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾..

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه هذا الأمر. وفيه إيحاء قوي للجماعة المسلمة من ورائه. فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها التي اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه؛ ولن ترفع راية غير رايتها

التي تنسبها إلى ربها؛ ولن تتبع منهجاً إلا المنهج الإلهي الذي ترمز له هذه القبلة المختارة.. هذا شأنها ما دامت مسلمة؛ فإذا لم تفعل فليست من الإسلام في شيء.. إنما هي دعوى..

ويستطرد فيكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض؛ فهم ليسوا على وفاق ، لأن الأهواء تفرقهم:

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾..

والعداء بين اليهود والنصارى، والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة، والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء.

وما كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهذا شأنه وهذا شأن أهل الكتاب، وقد علم الحق في الأمر، أن يتبع أهواءهم بعد ما جاءه من العلم:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾..

ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم، في هذا الخطاب الإلهي من الله سبحانه إلى نبيه الكريم الذي حدثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود..

إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدي الله وتوجيهه؛ ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه.

ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم، وبهذه المواجهة والتحذير.. ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ..إن الطريق واضح، والصراط مستقيم.. فإما العلم الذي جاء من عند اللّه. وإما الهوى في كل ما عداه.وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله. وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب. وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

وبعد هذه الوقفة العابرة نعود إلى السياق؛ فنجده لا يزال يقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق في هذا الشأن وفي غيره هو ما جاء به القرآن، وما أمر به الرسول. ولكنهم يكتمون الحق الذي يعلمونه، للهوى

الذي يضمرونه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾..

ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة، وهي مثل يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه.. فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - ومنه هذا الذي جاء به في شأن القبلة، وكان فريق منهم يكتمون الحق الذي يعلمونه علم اليقين.. فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب. وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئاً في أمر دينهم، الذي يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين.

وهنا يوجه الخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب:

﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾..

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما امترى يوماً ولا شك. وحينما قال له ربه في آية أخرى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾.. قال : «لا أشك ولا أسأل» ..

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه - صلى الله عليه وسلم - يحمل إيحاءً قوياً إلى من وراءه من المسلمين.

سواء منهم من كان في ذلك الحين يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم، ومن يأتي بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود في أمر دينهم.

﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾.

وبهذا يصرف الله المسلمين عن الانشغال بما يبثه أهل الكتاب من دسائس وفتن وتأويلات وأقاويل.. يصرفهم إلى العمل والاستباق إلى الخيرات.

مع تذكر أن مرجعهم إلى الله، وأن الله قدير على كل شي ء، لا يعجزه أمر، ولا يفوته شيء.

ثم يعود فيؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة مع تنويع التعقيب :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾..

والأمر في هذه المرة يخلو من الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم، ويتضمن الاتجاه إلى المسجد الحرام حيثما خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - وحيثما كان، مع توكيد أنه الحق من ربه. ومع التحذير الخفي من الميل عن هذا الحق. التحذير الذي يتضمنه قوله : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.. وهو الذي يشي بأنه كانت هناك حالة واقعة وراءه في قلوب بعض المسلمين تقتضي هذا التوكيد وهذا التحذير الشديد.

ثم توكيد للمرة الثالثة بمناسبة غرض آخر جديد ، وهو إبطال حجة أهل الكتاب، وحجة غيرهم ممن كانوا يرون المسلمين يتوجهون إلى قبلة اليهود، فيميلون إلى الاقتناع بما يذيعه اليهود من فضل دينهم على دين محمد، وأصالة قبلتهم ومن ثم منهجهم. أو من مشركي العرب الذين كانوا يجدون في هذا التوجيه وسيلة لصد العرب الذين يقدسون مسجدهم وتنفيرهم من الإسلام الذي يتجه أهله شطر قبلة بني إسرائيل!

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾..

وهو أمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يولي وجهه شطر المسجد من حيث خرج ، وإلى المسلمين أن يولوا وجوههم شطره حيثما كانوا. وبيان لعلة هذا التوجيه :

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ﴾..

وتهوين لما بعد ذلك من أقاويل الظالمين الذين لا يقفون عند الحجة والمنطق، إنما ينساقون مع العناد واللجاج. فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم، فسيظلون إذن في لجاجهم. فلا على المسلمين منهم:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

فلا سلطان لهم عليكم، ولا يملكون شيئاً من أمركم، ولا ينبغي أن تحفلوهم فتميلوا عما جاء كم من عندي، فأنا الذي أستحق الخشية بما أملك من أمركم في الدنيا والآخرة.. ومع التهوين من شأن الذين ظلموا، والتحذير من بأس اللّه ، يجيء التذكير بنعمة الله ، والإطماع في إتمامها على الأمة المسلمة، حين تستجيب وتستقيم : ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾...

وهو تذكير موح، وإطماع دافع، وتلويح بفضل عظيم بعد فضل عظيم..

ونجد في تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنىً جديداً في كل مرة.. في المرة الأولى كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد تقلب وجهه في السماء وضراعته الصامتة إلى ربه.. وفي الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه يوافق الرغبة والضراعة.. وفي الثالثة كان لقطع حجة الناس، والتهوين من شأن من لا يقف عند الحق والحجة..

ولكننا - مع هذا - نلمح وراء التكرار أنه كانت هناك حالة واقعة في الصف الإسلامي تستدعي هذا التكرار، وهذا التوكيد، وهذا البيان، وهذا التعليل، مما يشي بضخامة حملة الأضاليل والأباطيل، وأثرها في بعض القلوب والنفوس. هذا الأثر الذي كان يعالجه القرآن الكريم؛ ثم تبقى النصوص بعد ذلك على مدى الزمان تعالج مثل هذه الحالة في شتى صورها؛ في المعركة الدائبة التي لا تهدأ ولا تفتر ولا تلين!

واستطراداً مع هذا الغرض نرى السياق يستطرد في تذكير المسلمين

بنعمة الله عليهم، بإرسال هذا النبي منهم إليهم، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم، سادن المسجد الحرام قبلة المسلمين؛ ويربطهم - سبحانه - به مباشرة في نهاية الحديث :

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾..

والذي يلفت النظر هنا، أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل. دعوته أن يبعث الله في بنيه من جيرة البيت، رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.. ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم. وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثا إنما هو قديم؛ وأن قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم، وأن نعمة الله عليهم سابغة فهي نعمة الله التي وعدها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد.

إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيتكم هي إحدى الآلاء المطردة فيكم، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم:

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ ﴾..

فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم، وأن يختار الرسول الأخير منكم، وقد كانت يهود تستفتح به عليكم! ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾..

فما يتلو عليكم هو الحق.. والإيحاء الآخر هو الإشعار بعظمة التفضل في أن يخاطب الله العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله. وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين يتعمق حقيقته.

﴿وَيُزَكِّيكُمۡ ﴾.. ولولا الله ما زكي منهم من أحد ، ولا تطهر ولا ارتفع. ولكنه أرسل رسوله - صلى الله عليه وسلم - يطهرهم. يطهر أرواحهم من لوثة

الشرك ودنس الجاهلية، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره. ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة.

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾.. وفيها شمول لما سبق من تلاوة الآيات وهي الكتاب؛ وبيان للمادة الأصيلة فيه، وهي الحكمة، والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب وهي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات.. وكذلك تحققت هذه الثمرة ناضجة لمن رباهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وزكاهم بآيات الله.

﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾.. وكان ذلك حقاً في واقع الجماعة المسلمة، فقد التقطها الإسلام من البيئة العربية لا تعلم إلا أشياء قليلة متناثرة، تصلح لحياة القبيلة في الصحراء، أو في تلك المدن الصغيرة المنعزلة في باطن الصحراء. فجعل منها أمة تقود البشرية قيادة حكيمة راشدة، خبيرة بصيرة عالمة.. وكان هذا القرآن - مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن - هو مادة التوجيه والتعليم.

وما يزال هذا المنهج الذي خرّج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان، لو رجعت الأمة المسلمة إلى هذا المعين، ولو آمنت حقاً بهذا القرآن ، ولو جعلته منهجاً للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان!

وفي آخر هذا الدرس يتفضل الله على المسلمين تفضلاً آخر، وهو يدعوهم إلى شكره ويحذرهم من كفره يتفضل عليهم فيضمن لهم أن يذكرهم إذا هم ذكروه.

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.. يا للتفضل الجليل الودود! اللّه. جل جلاله. يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئاً لذكرهم له في عالمهم الصغير..

إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة.. وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! والله حين يذكرهم يذكرهم في هذا الكون الكبير.. وهو الله.. العلي الكبير.. أي تفضل! وأي كرم! وأي فيض في السماحة والجود! ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾.

إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه، ولا حاسب لعطاياه. الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فياض العطاء.

وفي الصحيح : يقول الله تعالى : «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب..

وذكر الله ليس لفظا باللسان، إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه، والشعور بالله ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثراً ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى.

﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾.. والشكر لله درجات، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته. وتنتهي بالتجرد لشكره والقصد إلى هذا الشكر في كل حركة بدن، وفي كل لفظة لسان، وفي كل خفقة قلب، وفي كل خطرة جنان.

والنهي عن الكفر هنا إلماع إلى الغاية التي ينتهي إليها التقصير في الذكر والشكر؛ وتحذير من النقطة البعيدة التي ينتهي إليها هذا الخط التعيس! والعياذ باللّه!

ومناسبة هذه التوجيهات والتحذيرات في موضوع القبلة واضحة. وهي النقطة التي تلتقي عندها القلوب لعبادة الله، والتميز بالانتساب إليه، والاختصاص بهذا الانتساب.

السيد فضل اللّه:

في هذا الفصل الذي يبدأ به الجزء الثاني من القرآن الكريم، يريد الله سبحانه أن يربي المسلمين في المجتمع الجديد الذي يعيشون فيه في المدينة، على مواجهة التحديات الآتية من الآخرين حول بعض التشريعات الإسلامية الصادرة من رسول الله أو بعض الأوضاع العامة التي كانت تواجه المسلمين آنذاك، وتثير بعض التساؤل والحيرة واللغط، مما قد يؤثر على تماسك الجماعة المسلمة ويفسح في المجال لمزيد من الارتباك والاهتزاز.

وقد تبرز أهمية هذا الاتجاه في الملاحظة التالية، وهي أن التحديات الكافرة قد تحدث في المراحل التي يعيش فيها المسلمون البساطة في الوعي والثقافة، والسذاجة الروحية والفكرية في مواجهة المشاكل المستجدة، ولا سيما إذا كانت نظرتهم إلى تلك الفئات المتحدية، نظرة تتسم بالاحترام الداخلي لمعلوماتهم العامة، من خلال الاعتقاد بأنهم يملكون المعرفة الشاملة بالكتاب المتضمن لأحكام الله وآياته، باعتبارهم أهل الكتاب، فقد يترك ذلك تاثيراً كبيراً على نظرتهم إلى القضايا المثارة أو المشاكل المطروحة، عندما يواجهون ذلك كله من خلال العجز الفكري عن المناقشة والتحليل.

أما القضية التي انطلقت هذه الآيات لمعالجتها، فقد شغلت المجتمع الإسلامي والمجتمع الكافر المضاد، لأنها كانت صدمة لهم جميعاً، وذلك لأن المسلمين كانوا يتجهون في عباداتهم منذ بداية الدعوة، إلى بيت المقدس الذي يتجه إليه اليهود والنصارى من أهل الكتاب، فجاء التشريع الجديد لينسخ ذلك ويحوّل القبلة إلى الكعبة، فأدى ذلك إلى إثارة أهل الكتاب لأنهم كانوا يجدون في صلاة المسلمين إلى بيت المقدس نوعاً من أنواع التبعية العملية لهم، وسبيلاً من سُبل إضلال البسطاء من المسلمين بالإيحاء إليهم بأن ذلك يدل على أن الحق معهم، كما أنهم اعتبروه خسارة لأحد مواقعهم

العملية التي تؤكد أصالتهم ومواقعهم المتقدمة من الكتاب والنبوات.

أما المسلمون فقد عاشوا صدمة ذاتية، لاشتمال ذلك على أسلوب جديد غير مألوف لديهم في التعامل مع التشريع الذي ساروا عليه مدة طويلة، بإلزامهم بالوقوف منه موقف الرفض العملي الذي يستبدل موقفاً بموقف، فيعتبر السير على التشريع - على أساس ذلك - انحرافاً عن الخط الصحيح، مما لم يكن لهم سابق معرفة به، ولم يكونوا في إعداد نفسي له، بل جاء مفاجأة كبيرة لهم، وصدمة نفسية إيحائية من خلال أساليب اليهود الذين حاولوا أن يثيروا أمامهم المشكلة الفكرية في النسخ.

وكان القرآن بالمرصاد لذلك؛ فقد خاض المعركة بكل الأساليب الضرورية التي يحتاجها الموقف، سواء في ذلك الأساليب الفكرية التي تواجه طبيعة التشريع، أو الأساليب العاطفية التي تخاطب مشاعر المسلمين وعواطفهم، أو الأساليب العملية التي تواجه المسلمين بالواقع الداخلي لأهل الكتاب في ما يمارسونه من أساليب اللف والدوران والتضليل ضد المسلمين، وتعرّفهم الموقع الذي يريد الله للأمة أن تقفه في الكون في قيادة العالم إلى الشاطئ الأمين، مما يجعل من القضية مدخلاً قرآنياً لتربية المجتمع المسلم على مواجهة التحديات بالفكر والعاطفة والواقعية.

وتصور الآية الأولى الحالة النفسية والذهنية التي كان يعيشها فريق من الناس من أهل الكتاب إزاء هذا التشريع الجديد، مما يدفعهم إلى أن يطرحوا مثل هذا التساؤل في مرارة وإنكار... وفي ذلك إيحاء بانخفاض المستوى الثقافي الذي يمكنهم من خلاله مواجهة الأمور التشريعية من جانبها الفكري على أساس الركائز الثابتة التي تقدم عليها قضايا التشريع.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾. الذين لا يفكرون في الأمور بطريقة متوازنة، ولا يميزون بين الوحي الإلهي في تشريعه المنطلق من المصلحة التي تتغير حسب تغير الأزمان والأحوال، مما يجعل الشيء ذا مصلحة اليوم بلحاظ

عنوان أو ظرف معين، ولا يكون ذا مصلحة في يوم آخر بلحاظ عنوان جديد أو ظرف طارئ؛ وبين الرغبة الذاتية التي تتحرك من موقع الأهواء التي لا تخضع لقاعدة.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ في صلاتهم، فكيف تتغير القبلة بين وقت وآخر، وكيف يتبدل التشريع الإلهي إذا كانوا ينسبون القبلة إلى وحي الله، وهل يمكن أن يبدل الله شريعته وهو العالم بحقائق الأشياء بعيداً عن كل الحالات الطارئة؟ فإذا كان التوجه إلى الكعبة مصلحة، فكيف كان بيت المقدس قبلة في التشريع الأول؟

إنهم يتساءلون عن الأساس الذي صرف المسلمين عن قبلتهم، ويثيرون أمام هذا التساؤل نقطتين:

الأولى: إنهم يوجهون الحديث إلى المسلمين كما لو كانت القضية تعني سلوكاً شخصياً لهم.

الثانية: إنهم لا يحاولون التدبّر في طبيعة التشريع الأول والثاني، ليجدوا أنهما ينطلقان من الله في تعيين أية جهة من الجهات ليتوجه الناس إليها في عبادتهم، وليستا منطلقتين من خصوصية ذاتية لهذه الجهة أو تلك ليمتنع الانتقال من جهة إلى جهة على أساس ذلك.

وعلى ضوء ذلك، فلا مجال لأيّ اعتراض؛ فإن الله يملك المشرق والمغرب معاً وليس له اختصاص بجهة دون جهة، فله أن يعيّن المشرق لنتوجه إليه، وله أن يعيّن المغرب لنتوجه إليه، وذلك ضمن الخطة التي يضعها للإنسان في تنظيم عباداته ومعاملاته، مما يمكن أن يختلف فيه وجه الحكمة والمصلحة حسب اختلاف الخطة الموضوعة، فقد يكون في الاتجاه إلى جهة ما مصلحة في داخل خطة معينة، وقد لا يكون فيه مصلحة بلحاظ خطة أخرى.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فهو الذي يوجه عباده إلى هذه الجهة أو تلك، ليمنحها القداسة من خلال ذلك، فلا قداسة لجهة دون جهة بعيداً عنه،

وهو الذي يعلم صلاح عباده في كل مرحلة من المراحل، فيوجب عليهم شيئاً في وقت ليبدله بشيء آخر في وقت آخر، تبعاً للمصالح التي تتبدل مع التغيرات الظرفية المتنوعة، وإذا كان بيت المقدس متميزاً بأنه موطن الأنبياء، فإن الكعبة هي أول بيت وضع للناس بأمر الله نبيه إبراهيم (ع) ببنائه وبدعوة الناس إليه للحج، فقد تتعلق حكمته بإبقاء بيت المقدس قبلة للمسلمين كما كان قبلة لغيرهم في الماضي، للتدليل على اعتراف الدين الجديد بأهمية هذا المكان المقدس في وعي المسلمين، ليؤكد هذا التعبير في خطهم الفكري، ثم يأتي التشريع الجديد ليجعل الكعبة قبلة جديدة من أجل تأكيد الخصائص العبادية التي تختزنها في وجودها القدسي، بالأمر الإلهي المباشر الصادر إلى خليله إبراهيم مما لا تملكه القبلة القديمة.

وخلاصة القضية أن على الإنسان أن يعرف أن الله لا يريد له إلا الخير ولا يأمره إلا بالسير على الخط المستقيم، في ما يهديه إليه من تشريعات وأحكام، مما يقتضيه التسليم والإذعان المطلق لله، فإن الله الذي يملك المشرق والمغرب هو الذي يختار لعباده ما يصلحهم ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ منهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الدين الحق الذي يؤدي بالناس إلى مواقع رضاه وإلى الجنة الموعودة لديه.

وقد شُعر بالحاجة إلى اعتماد هذا الأسلوب في الواقع العملي، الذي يخوض فيه الإسلام صراع التحديات الفكرية والعملية مع التيارات الكافرة والمنحرفة، عندما تلجأ إلى مواجهة الإسلام بأساليب الإثارة، التي تعمل على خداع المسلمين وإضلالهم وإبعادهم عن الخط المستقيم، فنحاول أن نواجه الموقف كما واجهه القرآن، بالتركيز على الصفات الواقعية التي تكشف حقيقتهم، وتبعد المسلمين عن التأثر بهم والخضوع لأساليبهم، ثم مواجهة القضية من جانبها الفكري بعيداً عن التأثيرات الذاتية الضاغطة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ تقف في الموقع المميّز بين سائر الأمم

من خلال الموقع القيادي للرسالة القائدة والدور القائد في الدعوة والحركة، كما كان الرسول كذلك بالنسبة إليهم في تبليغه وهدايته وقيادته. ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بفعل المهمة الموكولة إليكم في حركتكم القيادية في اتجاه الناس مما يستدعي المواكبة والمراقبة والمتابعة بالمستوى الذي يؤهلكم للشهادة عليهم من موقع الإشراف على حركتهم في الخط الفكري والعملي، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾ لأنه هو الذي صنع الأمة في وجودكم عندما أطلق الرسالة لتكون عنواناً لكم، وحملكم مسؤوليتها لتحدد لكم الدور القيادي، ليشهد عليكم أمام الله كيف كانت مواقعكم ومواقفكم وأوضاعكم ودعوتكم إلى دينه.

في هذه الآية حديث عن الأمة المسلمة بأنها «وسط» في ما جعله الله للمسلمين من موقع قيادي في الحياة، وأنها شاهدة على الناس، وحديث عن الرسول بأنه شاهد على الأمة.. فكيف نفهم هذه «الوسطية» وهذه الشهادة؟

وقد جرى بعض المفسرين في تفسير هذه الآية مجرى التفسير اللغوي البحت، فأخذوا منه معنى العدل والتوازن على أساس ما تمثله الشريعة الإسلامية من الوسطية بين الاتجاه الروحي المتطرف الذي يمثله النصارى، وبين الاتجاه المادي المتطرف الذي يمثله المشركون واليهود، لأن الإسلام يأخذ من الروح جانباً ومن المادة جانباً، لتكون الحياة - كما خلقها الله - نتيجة التزاوج بين الروح والمادة، وتتمثل في التوازن بين الاتجاه الجماعي المتطرف الذي يلغي دور الفرد، والاتجاه الفردي المطلق الذي يلغي دور المجتمع في الحياة، فأعطى للفرد دوره في ما يحقق ذاته من دون أن يغمط حق الجماعة في نطاق قضاياها العامة، وأعطى للجماعة دورها في ما لا يلغي للفرد نوازعه الذاتية الطبيعية. ويمتد الخط الوسطي إلى التوازن بين الدنيا والآخرة، فللمسلم أن يُقبل على الدنيا ويستمتع بطيباتها من دون أن يسيء إلى خط الآخرة في السير مع شريعة الله في ما يفعل وفي ما يترك،

وله أن يستغرق في الآخرة بما لا يمنعه من بناء الحياة والاندفاع معها على الأسس التي يريدها الله..

وفي ضوء ذلك، يمكن للأمة أن تؤدي دور الشهادة على الناس باعتبارها تقف في نقطة التوازن التي ترجع إليها بقية الأطراف، كما يكون النبي شهيداً على الأمة لأنه المثال الأكمل الذي يوزن به حال الآحاد من الأمة.

وقد ذكر صاحب تفسير الميزان في معنى «الوسط»: «أن كون الأمة وسطاً إنما هو بتخلّلها بين الرسول وبين الناس». ولكننا قدمنا أن الوسطية هنا لا يراد بها ذلك بل يراد بها – في ما نفهمه – الموقع الأفضل الذي وضع الله فيه الأمة بالنسبة إلى الناس؛ والله العالم بحقائق آياته.

أما الشهادة، فقد ذكر لها عدة معان، منها: أن المعنى: لتشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا فيها الحق في الدنيا وفي الآخرة. كما قال: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، الزمر: ٦٩ . وقال: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ﴾ غافر: ٥١ ، وقال ابن زيد: الأشهاد أربعة؛ والملائكة والأنبياء وأمة محمد (ص) والجوارح. كا قال: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ النور: ٢٤ . الآية.

ومنها: أن المعنى: لتكونوا حجة على الناس، فتبينوا لهم الحق والدين، ويكون الرسول عليكم شهيداً مؤدياً للدين إليكم، وسُمّي الشاهد شاهداً لأنه يبين، ولذلك يقال للشهادة بيّنة.

ومنها: أنهم يشهدون للأنبياء على أممهم المكذبين لهم بأنهم قد بلغوا وجاز ذلك لإعلام النبي (ص) إياهم بذلك.

وإننا نستقرب من هذه المعاني المعنى الأول، لأن الاتجاه العام في آيات الشهادة هو الإيحاء للناس بأنهم مطوّقون في يوم القيامة بالشهادة على ما فعلوه في الدنيا من جميع الجهات، وذلك من الجهات المألوفة لديهم في الشهادة في ما يشهد به الأنبياء والمبلغون، أو من الجهات غير المألوفة لديهم وهي شهادة الله والملائكة والجوارح، ليشعروا في الدنيا بالحاجة إلى

الانضباط في كل ما يعملونه أو يتركونه، وليتعمق إحساسهم الداخلي بالرقابة الموجهة إليهم من جميع الجهات.

وقد أثار المفسرون اعتراضاً في هذا المجال، وخلاصته أن الشهادة تفرض الموقع المتميز للشاهد على المشهود عليه، ونحن نعلم أن الأمة تضم في جماعتها المطيع والعاصي والجاهل والعالم، فكيف يمكن أن يكون الجميع شهوداً في موقع الشهادة؟ والجواب أن الأسلوب القرآني قد جرى على الحديث عن البعض بصفة الكل، باعتبار اشتمال الكل عليه، تماماً كما قد حدثنا عن بني إسرائيل، مع أن الصفات التي ذكرها كانت صفات البعض.. وعلى هذا، فإن كون الأمة شاهدة يتحرك في نطاق وجود العناصر الكثيرة في داخلها ممن يصلحون لمثل هذا الموقع الكبير، وهم الطليعة الواعية المؤمنة التقية المنضبطة التي تفهم الإسلام حق الفهم، وتعيه حق الوعي، وتمارسه حق الممارسة، وتحمله بروح رسولية رائدة.

ويتجه الخطاب إلى النبي (ص) باعتبار أنه رسول الله إلى الأمة، المكلف بتوضيح الصورة لهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي بيت المقدس، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾.

فقد أراد الله أن يختبر المسلمين ليربيهم على الطاعة المطلقة له، التي تتمثل في التسليم لأحكامه من دون أي ريب واعتراض؛ فأمرهم في البداية بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم عنها ليبرز الأشخاص الذين يعيشون الإسلام فكراً وشعوراً وممارسة وطاعة مطلقة... وليتميزوا عن الأشخاص الذين يعيشون الاهتزاز في إيمانهم، ويواجهون الرسالة كأية فكرة بشرية قابلة للأخذ والرد، ويفهمون الإيمان إرتباطاً شكلياً بالله وبالرسول، حتى إذا وقفوا في مواقع البلاء، تحولوا عن مواقفهم ومواقعهم الإيمانية إلى مواقع الكفر والنفاق.

وهكذا كانت القبلة الجديدة اختباراً للإيمان المستقر في قلوب المؤمنين

الذين يسلمون أمرهم لله فلا يعترضون على ما يأتيهم الرسول به من تشريعات، لأنهم يؤمنون بأنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم: ٣ - ٤ ، ليتميز هؤلاء عن غيرهم..

﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ هذا كناية عن الذين يتراجعون عن خط الإيمان ويسقطون أمام التجربة وتثيرهم الشكوك وتنحرف بهم عن الخط، لأنهم لا يعيشون الإسلام تسليماً فكرياً وروحياً وعملياً، ولا ينفتحون على الرسول التزاماً وطاعة.

﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾. الظاهر أنها إشارة إلى هذه الحادثة التي تتمثل في تحويل القبلة إلى الكعبة، باعتبار أنها هزت المجتمع المسلم من ناحية فكرية وعملية، فأثارت في داخله الشعور باهتزاز التشريع وعدم ارتكازه على أساس متين من المصلحة والحكمة الثابتة التي لا تغيّرها الظروف والأحوال في ما كان يوحيه اليهود للمسلمين من نظريتهم حول النسخ، كما كانوا يوسوسون لهم بأن صلاتهم التي كانوا يتوجهون بها إلى بيت المقدس قد ضاعت عليهم، لأنها كانت إلى غير القبلة الحقيقية، فأشبهت حالهم حال الذين لا يتوجهون في صلاتهم إلى الكعبة الآن، ولكن الذين هداهم الله وعرّفهم حقيقة شريعته وطبيعة ارتباط التشريع، وهو الذي يعرف وجه الحكمة في ما يحرّم وفي ما يحلّل، انطلاقاً من اختلاف المصلحة في بعض الأشياء حسب اختلاف الظروف والأحوال، انطلقوا في الموضوع انطلاق تسليم وانقياد وطاعة مطلقة، ووعي منفتح على خلفيات التشريع الحكيمة.

أما قضية ضياع إيمان المؤمنين، في ما تمثله الصلاة من روح الإيمان، فليس وارداً في حساب الله، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾، لأنهم قاموا بالصلاة على أكمل وجه؛ فإن العبرة بحصول الشروط في حال القيام بالصلاة، فلا يتبدل الحال من هذه الجهة إذا تبدلت الشروط، لأن الشرط الجديد لا يترك أثراً

رجعياً على الأعمال السابقة، بل يقتصر تأثيره على الصلوات المقبلة، وهذا ما ينسجم مع رأفة الله ورحمته بعباده، حيث يحفظ لهم أعمالهم ويثيبهم عليها إذا كانت واجدة لشروطها الكاملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي ضوء هذا، فإن النبي (ص) كان مأموراً بالتوجه إلى الكعبة، ثم حوّل إلى بيت المقدس، ثم أعيد إلى الكعبة، فكان الابتلاء موجهاً إلى العرب أو إلى القريش الذين كانوا متعلقين بالكعبة، مما يجعل من تحويلهم إلى بيت المقدس اختباراً لهم، باعتبار أن ذلك يصطدم بمشاعرهم الحميمة تجاه الكعبة.

ولازم ذلك أن الله جعل الكعبة قبلة مرتين، ونلاحظ على ذلك:

أولاً: إنه لا دليل على تشريع الصلاة إلى الكعبة في البداية، ولا ظهور في الآية على ذلك.

وثانياً: إن الظاهر من قوله تعالى في الآية التالية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أن الكعبة كانت تمثل رغبة النبي (ص) في أن يوجهه الله إليها لتكون قبلة المسلمين في صلاتهم مما يوحي بأنه لم يسبق لها أن كانت قبلة سابقاً.

ثالثاً: إن عملية التشريع أولاً، ثم النسخ، ثم التشريع ثانياً لا يتناسب مع طبيعة استقامة التشريع.

ورابعاً: إن تشريع الكعبة كقبلة كان مقدراً له أن يستقر في نهاية التشريع، ولكن الله أخّر ذلك للحكمة المذكورة في هذه الآية، وهي أن تكون المسألة مادة اختبار وامتحان للمسلمين، من دون أن تكون هناك أية سلبية في طبيعة الصلوات التي صلوها إلى بيت المقدس، لأنها كانت القبلة الشرعية قبل النسخ مما يجعل الحكم مطابقاً للواقع، لأن النسخ لا يرفع الحكم من أصله، بل يرفعه من وقته.

وخامساً: إن الظاهر من الآية أن التجربة كانت تتحرك نحو المنافقين

الخاضعين لليهود، في إثارتهم للمشاكل الفكرية ضد الإسلام وأهله، وليست متحركة في الواقع العربي أو القرشي الذي كان لا يمثل مشكلة كبرى في الواقع الإسلامي، ولذلك لم نجد هناك أي حديث تاريخي عن مسألة العلاقة الحميمة بالكعبة التي كانت تمثل الخط الفاصل بين الثبات على الإيمان والانحراف عنه على أساس تشريع القبلة.

وسادساً: روى علي بن إبراهيم بإسناده عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: تحولت القبلة إلى الكعبة بعدما صلى النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس سبعة أشهر، قال: ثم وجهه الله إلى الكعبة، وذلك أن اليهود كانوا يعيّرون رسول الله (ص) ويقولون له: أنت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا، فاغتم رسول الله (ص) من ذلك غماً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر من الله تعالى في ذلك أمراً، فلما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر، كان في مسجد بني سالم قد صلى من الظهر ركعتين، فنزل عليه جبرائيل (ع)، فأخذ بعضديه وحوله إلى الكعبة، وأنزل عليه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وكان صلى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة، فقالت اليهود والسفهاء: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ في تطلع ابتهالي ينفتح في روحية دعائية على ربه، في تعبير عن الرغبة العقلية التي تنطلق من حسابات دقيقة في مصلحة الرسالة ومن إيحاءات شعورية في وعي التحدي اليهودي ضد الإسلام، وذلك في دعاء هادئ يرتفع إلى الله، من دون اعتراض على تشريعه للقبلة الأولى، وتوسل إليه أن يبدلها إلى القبلة الجديدة – وهي الكعبة – التي تنسجم مع موقع الرسالة الذي يتجذر في حركة الأمة، من خلال الإحساس بأن الدين الجديد بحاجة إلى قبلة جديدة تمثل رمز الوحدة الحركية للأمة.

فإن الله الذي أراد لإبراهيم أن يؤذّن في الناس بالحج إلى الكعبة، أعطاها معنى الطهارة والقداسة والخصوصية المميزة في اعتبارها بيته المحرم الذي طهره – من خلال إبراهيم – للطائفين والعاكفين والركّع السجود، كما جعله مثابة للناس وأمناً، وغير ذلك من الخصوصيات الداخلية والخارجية التي تميزه عن بيت المقدس. فقد صنعت الكعبة على عين الله ولم يكن ذلك لبيت المقدس.. وهكذا تقبل الله ابتهالاته ودعواته، وجاء الوحي ليقرر التشريع للقبلة الجديدة التي يرضاها الله كما رضيها رسوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ يا محمد ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ﴾، أي حوّل نفسك في توجهاتك العبادية نحو المسجد الحرام الذي يحتوي الكعبة – القبلة باعتبارها جزءاً منه؛ ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أيها المسلمون، ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وتوجهوا إليه، ليكون رمز وحدتكم في اتجاهكم نحو بيت الله الذي هو المسجد العالمي، سواء كنتم في البحر أو في البر، أو في السهل أو في الجبل، أو في الجو أو في الشرق أو في الغرب، ولا تنحرفوا عنه إلى غيره يميناً أو شمالاً ولا تستدبروه. وقد انطلق التدقيق بالقبلة من خلال التحديد الصريح في ضرورة التوجه إلى المسجد الحرام حتى أصبح هناك ما يقارب تأسيس علم القبلة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ولا سيما اليهود الذين بادروا بالاعتراض وأوحوا للمنافقين أن يرفعوا الصوت عالياً بذلك، بعد أن كانوا يتحدون النبي ويستعملون عليه لتوجهه إلى قبلتهم نحو بيت المقدس، ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾. قال في مجمع البيان: «أي يعلمون أن تحويل القبلة إلى الكعبة حق مأمور به من ربهم، وإنما علموا ذلك لأنه كان في بشارة الأنبياء لهم أن يكون نبي من صفاته كذا وكذا، وكان في صفاته أنه يصلي إلى القبلتين. ورُوي أنهم قالوا – عند التحويل -: كما أُمرت بهذا يا محمد وإنما هو شيء تبتدعه من تلقاء نفسك مرة إلى هنا، ومرة إلى هنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أنهم يعلمون خلاف ما يقولون». وربما كان وصفهم بأهل الكتاب

في الآية إيحاءً بأن تحويل القبلة موجود في الكتاب، لأنهم يعلمون أن الخط الذي تسير عليه في العقيدة وفي التشريع هو الحق من ربهم، وذلك في ما تحدثت به التوراة التي يعرفونها جيداً ويخفونها عن الناس، وهم يظنون أن الله يغفل عنهم في ما يدبّرون من مكائد، ولكن الله لا يغفل عنهم وعن أعمالهم في أي حال، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ من الخطط التخريبية العدوانية التي يخططونها في حركتهم المضادة للنبي، من أجل أن يصدوا عن سبيل الله ويفتنوا الناس عن دينهم الحق.

فهو المطلع على كل شيء من أمور عباده.

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ﴾ لأنهم لا يريدون الانفتاح على رسالتك، فقد أغلقوا كل النوافذ الروحية والفكرية التي تطل على الحق، ولذلك فإن الجهد الذي تصرفه معهم من أجل أن تقنعهم بالحق الذي معك، هو جهد ضائع لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة، فالقضية ليست قضية الدلائل والبينات التي تقدمها إليهم كثرة أو قلة، بل هي الباب المغلق الذي يقفون خلفه ولا يريدون الخروج منه، فلو أنك قدمت لهم كل الآيات ما اتبعوا قبلتك.

كما أنك – من خلال الحق الذي تؤمن به – لا تتبع قبلتهم. ثم إن القضية ليست قضية العناد الذي لا يلين للحق معك، بل إن الموقف الذي يحكم علاقة بعضهم ببعض يتخذ الأسلوب نفسه، فإن اليهود يستقبلون صخرة بيت المقدس أينما كانوا، أما النصارى فيستقبلون المشرق أينما كانوا دون أن يتنازل أحدهم للآخر، ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾.

وتنطلق الآية أخيراً في مواجهة الموقف بأسلوب التهديد لأية حالة من حالات الاستسلام للضغوط المتنوعة التي يمكن أن يخضع لها المسلمون في مثل هذه المجالات... وتزداد الموجهة حدة وتأكيداً بتوجيه الخطاب إلى النبي محمد (ص) كأسلوب من أساليب القرآن في الإيحاء للأمة بخطورة

القضية، فإن القوم لا ينطلقون من موقف فكري للحق بل يتحركون من خلال أهوائهم.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يظلمون أنفسهم فيبتعدون بها عن الحقيقة الأصيلة التي انفتحوا عليها من خلال المعرفة العميقة الواسعة، ويظلمون العقل الذي يمثل القاعدة لوجودهم الإنساني، الذي يركز لهم كل خطواتهم في الحياة ويضعها على الدرب المستقيم، ويظلمون مصيرهم الذي يتحركون به إلى النار بدلاً من الجنة.

ويؤكد القرآن من جديد أن أهل الكتاب لا يعيشون حالة جهل للنبي ولرسالته، فقد عرفتهم التوراة صفاته جيداً، فعرفوه في وضوح من الرؤية كما عرفوا أبناءهم، ولكنهم يكتمون الحق وهم يعلمونه نتيجة عنادهم وتمردهم وضلالهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾وهم العلماء منهم، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي رسول الله في صدقه في نبوته،﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في وضوح الرؤية وإشراقة اليقين من خلال بشارة التوراة والإنجيل به، وحديثهما عنه بأوصافه ودلائله التي تشير إليه، وقد جاء الحديث في القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف: ١٥٧ ، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الصف: ٦ .

واحتمل بعضهم أن يكون الضمير في﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ عائداً إلى الكتاب،

ولكنه غير ظاهر لأنه لا مناسبة له في السياق العام في موضوع الجدال الذي يدور حول النبي والنبوة أمام مفردات التشكيك التي تُوجه إليه، كما أن تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الأبناء قد يوحي بذلك، فإنه يقال في الإنسان إن فلاناً يعرفه كما يعرف ولده ولا يقال ذلك في الكتاب.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ الذي قامت الحجة عليهم به بمعرفته اليقينية ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يملكون أساساً لأية شبهة في ذلك.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي أنزله إليك وبيّنه لك في وضوح الوحي وإشراقته، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين في أي شأن من شؤونه.

والظاهر أن الخطاب – كما ذكرنا – موجه لرسول الله الذي جاء بالصدق وصدق به، وهو جار على أسلوب خطاب الأمة من خلال خطاب الرسول، مما يوحي بأن على الأمة أن لا تقع تحت تأثير عناصر الشك التي يحاول الكافرون من أعداء الإسلام إثارتها في وجدانهم الفكري.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي أن لكل قوم وجهة يتجهون إليها من خلال القاعدة الفكرية الإيمانية التي يرتكزون عليها في ما يأخذون به أو يتركونه، أو ينطلقون به من مواقع ومواقف وعلاقات بالحياة وبالإنسان، سواء في ذلك الأنبياء الذين ينطلق كل واحد منهم بملّته ووجهته التي تختلف في خصوصياتها فتتعدد جهاتها، ولكنها تلتقي في الإسلام الذي يجمع الرسالات كلها عند الانقياد لله في كل شيء، وهذا هو ما ينبغي للمسلمين أن يتحركوا فيه في انفتاحهم على الكعبة التي أراد الله لهم أن يتوجهوا إليها، بعيداً عن كل عناصر الشك التي يثيرها اليهود والمنافقون في عملية تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ليعرفوا أنه ليس من الضروري أن يتبعوا القبلة التي شرّعها الأنبياء من قبلهم، لأنه من الممكن أن يختلف اتجاه القبلة بين رسالة وأخرى، وبين نبي وآخر، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فهذا هو الوجه الذي أراد الله لكم أن تستقبلوه في كل مواقع حياتكم في رسالتكم التي حملكم

الله إياها من خلال رسوله بالمسارعة إلى الخيرات التي تمثل حركة الحياة في إيجابياتها الروحية والأخلاقية في الإنسان بعلاقته بالإنسان الآخر، وبالكون من حوله، عندما يقدم من عقله وقلبه وروحه وجهده الكثير من الأفكار والمشاعر والعواطف والأعمال التي تفتح آفاقه على عوالم جديدة كما توجه خطواته إلى دروب جديدة.

إنها الخيرات، العنوان الكبير لاستقامة الحياة على الخط الصالح الذي يربط بين الله والإنسان والحياة في دائرة المسؤوليات العامة التي يريدها الله للحياة من خلال الإنسان، لتكون على الصورة التي أراد لها أن تتمثل فيها على أساس الحق الذي أقام عليه الكون كله.

﴿ أَيْنَ مَا ﴾ في اي مكان وموقع ﴿ تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ حيث يبعثكم كما خلقكم، وأماتكم ﴿ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴾ فلا شيء، خارج قدرة الله تعالى، وليس البعث بأصعب من الخلق، وليس الجمع بأصعب من التفريق.

وتعود الآيات مع التشريع الجديد في خطاب حاسم للنبي، لتؤكد له أنه الحق من ربه، فلا مجال للتراجع عنه مهما حشد اليهود من ضغوط ومهما اتبعوا من أساليب التضليل، فإن الله لا يغفل عما يعمله عباده إزاء تكاليفه من طاعة أو معصية.. ويعود الخطاب من جديد للنبي أولاً وللمسلمين ثانياً بالقوة الآمرة نفسها، وبتعليل جديد؛ فإن بعض الأحاديث الواردة في تفسير الآية تتحدث عن تعاليم واردة في الكتب الدينية السابقة التي تذكر أن النبي سيصلي إلى الكعبة، مما يجعل من الانحراف عن ذلك حجة للآخرين على المسلمين لأنه يكشف أنهم ليسوا الأمة الموعودة في الكتب السماوية.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ من أي موقع من البلدان التي تبتعد بك عن المسجد الحرام أو عن مكة، ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ ﴾ في صلاتك وفي كل عمل مشروط باستقبال القبلة؛ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ ﴾ فهو القبلة التي شرعها الله وجعلها القاعدة التي تتوحدون فيها وتتوجهون إليها في موقع

من مواقع الإلزام الشرعي الذي لا مجال للانحراف عنه تحت تأثير أية حالة ذاتية أو أي ضغط خارجي، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فلا تغفلوا عن الحقيقة الإيمنية في مراقبة الله لكم في كل الأمور.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ فهذا هو التشريع المؤكد الذي يزداد تأكيداً على مستوى الفريضة اليومية التي يجب عليكم أن تنفتحوا عليها في وعي الفكرة، وتلتزموا بها في وعي العمل، لتتحول لديكم إلى عادة جديدة تنسخ العادة السابقة، لشتعروا بأن التشريع الجديد قد تحول إلى واقع جديد، وتلك هي مهمة التشريع في حياة المسلمين، بأن يتحول إلى حالة تغييرية في حياة الأمة لتكون في حجم العادة التاريخية المتجذرة في وجودها العملي، لا مجرد حالة طارئة في الواقع، ليلتقي الخط في فريضة النبي الذي لا بد من أن يكون أول مسلم في وعي التشريع وحركته، وفي فريضة الأمة ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ في صلاتكم وعباداتكم الأخرى المشروطة بالتوجه إلى القبلة، وعليكم أن تتابعوا ذلك وتلتزموه دائماً، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ من خلال التاريخ الذي كان يتحدث به اليهود - كما روي - أن النبي الموعود يصلي إلى قبلتين، أو ما كان يتحدث به المشركون - كما قيل - ويتساءلون كيف ترك محمد الكعبة وهو المؤهل - كما يقول - لإحياء ملة إبراهيم التي سار عليها، فإذا التزمتم بالكعبة قبلة أبطلتم حجة هؤلاء المضادة ممن ينفتح على الحوار ويقف أمام الحجة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ ممن يعيش في مواقفه المضادة على أساس العناد الذي لا ينطلق من حجة أو برهان، بل من ذهنية العدوان الذاتي من خلال العقدة المستحكمة في نفسه ضد الحق وأهله. فليست المشكلة عندهم نوعية الاتجاه إلى بيت المقدس أو الكعبة، بل المشكلة هي التزامكم بالدعوة الجديدة والدين الجديد الذي يلغي امتيازاتهم الناشئة من الفكر الباطل والخط المنحرف، فهم الظالمون في مواقفهم وفي كل اتجاهاتهم

الفكرية والعملية، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لأنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ لأني ربكم الذي يملك وجودكم ومصيركم كلّه، مما يفرض عليكم الالتزام بالدين الذي أنزلته والرسول الذي أرسلته، ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ في استقامة التشريع على الخط الذي تتكامل فيه قضاياكم ومواقفكم وخطواتكم في الحياة، باعتبار أن الله يريد للناس أن يتابعوا نعمه في تشريعاته، كما يتابعونها في أوضاعهم العامة والخاصة؛ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بما يوفره الله لكم من وسائل الهداية في امتحانه لكم واختباره لثباتكم على الإيمان، وذلك إذا أخذتم بأسباب الهدى في ما يشرعه الله لكم من أحكامه ويوضحه لكم من مفاهيمه.

ثم يعطي للمسلمين الصورة الكاملة المتجسدة للنعمة التامة الشاملة في هذا الرسول العظيم الذي جاء من أجل أن يرفع مستوى الإنسانية في ما يتلوه من آيات الله، ويزكي ضمائر الناس وحياتهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وما لم يعلموه من حقائق الحياة في الدنيا والآخرة.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ فهذه هي النعمة الكبرى التي تتفرع عنها كل النعم الصغيرة في تفاصيل التشريع، لأنه يفتح لكم الأفق الكبير الذي يطل بكم على كل جمالات الحق وروائع الإيمان، ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ التي توحي إليكم بكل الحقيقة الصافية، وترتفع بكم إلى الدرجات العليا من المعرفة، وتمهد لكم سبل الحياة القويمة، وتعرفكم ما يصلح أمركم أو يفسده، وتقربكم إلى الله وإلى الخط المستقيم للسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ وينمي أرواحكم بالخير، ويربي نفوسكم على الطهر والنقاء، ويبتعد بكم عن كل الرذائل والنقائص الأخلاقية.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ الذي أنزله الله على رسوله ليكون المنهج الذي تأخذون به في كل خطواتكم في الحياة، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ التي تعرفكم كيف تركزون أقدامكم على الصراط المستقيم وتضعون كل شيء في موضعه، فلا

تخطئون في موقع، ولا تنحرفون في طريق، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾من فنون المعرفة في عالم الغيب والشهادة، مما لم يسبق لكم معرفته في تجاربكم الماضية.

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ في كل ما يفتح عقولكم وقلوبكم على معنى الألوهية والربوبية في ذات الله، ليدفعكم ذلك إلى الوعي العميق للحضور الشامل لله في كل حياتكم العقلية في معنى الفكر، وفي حياتكم العملية في خط الواقع، لتذكروا كل صفاته العليا، وأسمائه الحسنى، ونعمه الوافرة، وآياته الكثيرة، ولتتحركوا في اتجاهه في كل موقع وموقف، فهو الذكر الذي يخرجكم من الغفلة ويفتح لكم أبواب المعرفة، لتعيشوا معه في عالم الشهود من خلال الوعي الروحي المنطلق من عالم الغيب، وهو الذكر الذي يجعل الإنسان قريباً إلى الله بروحه وجسده، ليكون الله معه في كل حال وليراه مع كل شيء وخلف كل شيء.

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالرحمة والنعمة والمغفرة والرضوان، مما يجعلكم تحت رعايتي بشكل مباشر أو غير مباشر، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ نعمتي التي أنعمت عليكم بالكلمة والفعل والموقف، ليكون الشكر باللسان في الكلمة المعبّرة، وبالفعل في الطاعة لله وامتثال أوامره ونواهيه، وبالموقف في موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه وإعزاز الحق وإذلال الباطل، وفي غير ذلك مما يكون موقعاً لرضوان الله.

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تجحدوا النعمة بأساليب التمرد والطغيان والمعصية، فإن ذلك يعرضكم للغضب الإلهي والعذاب الشديد، بينما يؤهّلكم الشكر للزيادة في أعماركم وأرزاقكم وكل أوضاعكم المتصلة بكل شؤونكم في الحياة.

وقد جاء كثير من الأحاديث المأثورة ما عبر عنه الحديث المروي – في عدة الداعي – عن رسول الله (ص) أنه خرج على أصحابه، فقال: «ارتعوا في

رياض الجنة، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى، فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وقال سبحانه: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ البقرة: ١٥٢ ، يعني اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم والإحسان والرحمة والرضوان».

وعن الحسن البزاز قال: «قال لي أبو عبدالله (ع): ألا أخبرك بأشد ما فرض الله على خلقه (ثلاث)؟ قلت: بلى، قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك أخاك، وذكر الله في كل موطن، أما إني لا أقول: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن إذا هجمت على طاعة أو على معصية»... وليس معنى التأكيد للجانب العملي للذكر، هو التهوين من الجانب الآخر الذي يتمثل في الذكر باللسان في كلمات التسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار، بل قد يكون هذا مقدمة لذاك، لأن الاستمرار في ذكر آلاء الله ونعمائه وعظمته يخلق لدى الإنسان حالة رائعة منفتحة على الله حتى ليحس به في كل شؤون حياته، مما يؤدي به إلى الإحساس بضرورة طاعته في كل شيء..

وفي ضوء ذلك كله، نفهم أن المقابلة بين ذكر الله لعبده وبين ذكر العبد لله تعطينا الفكرة الإسلامية التي توحي للعبد بأن استحقاقه لرعاية الله له بنعمه وألطافه، مشروط بانضباطه العملي أمام أوامره ونواهيه كما هي الحال في ميثاق الله لعباده، وعهد العباد أمام ربهم في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ البقرة: ٤٠ .

أما الشكر، فهو الدعوة الثانية التي يختم بها الله هذه الآيات، ليوجه الناس إلى أن يشكروه ولا يكفروا به، وليست الدعوة لكلمة الشكر، بل هي

دعوة إلى موقف الشكر؛ وذلك بأن يقوم بالطاعة ويجتنب المعصية، ويعبد الله كما ينبغي له، وهذا هو ما نستوحيه من الحديث المأثور عن رسول الله (ص) في ما رواه أبو بصير عن أبي جعفر (ع) قال: «كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله لمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً؟ قال: وكان رسول الله (ص) يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ طه: ١ - ٢ .

وقد رُوي عن أبي عبدالله (ع): «شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين، وروي عنه، في ما رواه أبو بصير، قال: قلت لأبي عبدالله: «هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم، قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان في ما أنعم الله عليه في ماله حق أداه»... وهكذا يلتقي الشكر في الكلمة بالشكر في الممارسة، ليتأكد الأسلوب الإسلامي التربوي الذي لا يحول العلاقة بالله إلى كلمات تقليدية ربما ينتهي الأمر فيها إلى الجمود، بل يبعث فيها الروح الذي يجعل منها تجسيداً حياً للمبادئ الروحية في خطوات الإنسان العملية في كلماته وأفعاله.

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن شكر الله يمتد حتى يتمثل في شكر الإنسان للناس على ما قدموه له من خدمات في حياته الخاصة والعامة، حتى أن الإنسان الذي لا يشكر الناس لا يشكر الله، فقد جاء في الحديث عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) أنه قال: «إن الله يحب كل قلب حزين، ويحب كل عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبدٍ من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا رب، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس».

ولعل من المعروف لدينا أن هذا الاتجاه التربوي في اعتبار شكر الإنسان

على عمله شكراً لله، يتحرك في الخط الإسلامي الذي يدعو الناس إلى تشجيع المحسنين على إحسانهم، لأن من طبيعة الإنسان العامل في الخير أنه يحب أن يجد صدى عمله في مواقف الآخرين منه، وإن لم يكن ذلك عن عقدة ذاتية، فإذا لم يحصلوا على ذلك، بل وجدوا إهمالاً وجحوداً، كان هذا موجباً لتثبيطهم عن السير بعيداً في هذا الاتجاه، وقد ورد في وصية الإمام علي (ع) لمالك الأشتر (رض): «ولا يكونَنّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان».

ولا يتنافى ذلك مع الروح الإسلامية التي تدعو الإنسان إلى أن يعتبر الله هو السبب الأعمق في الأشياء، فلا يملك العبد من أمره إلا ما ملكه، لأن الله يريد - في الوقت نفسه - أن لا يغفل الإنسان دور الواسطة التي جعلها الله أداة لإيصال نعمه إليه، ولهذا أمر الإنسان بأن يشكر والديه كما يشكر ربه في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ لقمان: ١٤ .

وقد يكون من أسباب التركيز على هذا الجانب، أن الإنسان عادة يحس بتأثير الأشياء المحسوسة لديه أو القريبة من إحساسه، فإذا لم يتأثر أو ينفعل بالخدمات المباشرة المحسوسة لديه ممن يعيش معهم، فإن ذلك يكشف عن فقدان حس الشكر لديه، الأمر الذي يؤدي إلى أن يفقد روح الشكر لله سبحانه في نهاية المطاف.

الطبري:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾، سيقول الجهال من الناس، وهم اليهود وأهل النفاق. وإنما سمّاهم الله عزّ وجلّ سفهاء لأنهم سَفِهوا

الحقّ، فتجاهلت أحبارُ اليهود، وتعاظمت جهالُهم وأهلُ الغباء منهم عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وتحير المنافقون فتبلَّدوا.

وبما قلنا في السفهاء أنهم هم اليهود وأهل النفاق، قال أهل التأويل.

ذكر من قال هم اليهود:

عن مجاهد في قول الله عز وجلّ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ﴾ قال: اليهود تقوله حين ترك بيتِ المقدس.

عن البراء: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ قال: اليهود.

عن البراء في قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ قال: أهل الكتاب.

وقال آخرون: السفهاء: المنافقون.

ذكر من قال ذلك:

عن السدي قال: نزلت: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ في المنافقين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ ﴾.

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ ﴾ أي شيء صرفهم عن قبلتهم؟ وهو من قول القائل: ولاني فلان دُبُرَه: إذا حوّل وجهه عنه واستدبره، فكذلك قوله: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ ﴾ أي شيء حوّل وجوههم؟

وأما قوله: ﴿ عَن قِبۡلَتِهِمُ ﴾ فإن قِبْلَةَ كل شيء: ما قابل وجهه، وإنما هي «فِعْلة» بمنزلة الجِلْسة والقِعْدة من قول القائل: قابلت فلاناً: إذا صرت قبالته أقابله، فهو لي قِبْلة، وأنا له قبلة، إذا قابل كل واحد منهما بوجهه وجه صاحبه.

قال: فتأويل الكلام إذن إذْ كان ذلك معناه: سيقول السفهاء من النَّاس لكم أيها المؤمنون بالله ورسوله، إذا حوّلتم وجوهكم عن قبلة اليهود التي كانت لكم قبلة قبل أمري إياكم بتحويل وجوهكم عنها شطر المسجد الحرام: أيّ شيء حوّل وجوه هؤلاء، فصرفها عن الموضع الذي كانوا يستقبلونه بوجوههم في صلاتهم؟ فأعلم الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم ما

اليهود والمنافقون قائلون من القول عند تحويل قبلته وقبلة أصحابه عن الشام إلى المسجد الحرام، وعلّمه ما ينبغي أن يكون من ردّه عليهم من الجواب، فقال له: إذا قالوا ذلك لك يا محمد، فقل لهم:﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وكان سبب ذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلَّى نحو بيت المقدس مدة سنذكر مبلغها فيما بعد إن شاء الله تعالى، ثم أراد الله تعالى صَرْف قبلة نبيه صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام، فأخبره عمّا اليهود قائلوه من القول عند صرفه وجهه ووجه أصحابه شطره، وما الذي ينبغي أن يكون من ردّه عليهم من الجواب.

اختلف أهل العلم في المدّة التي صلاّها رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس بعد الهجرة فقال بعضهم بما:

عن ابن عباس قال: لما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعةُ بن قيس، وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ونافع بن أبي نافع، هكذا قال ابن حميد، وقال أبو كريب: ورافع بن أبي رافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقالوا: يا محمد ما ولاّك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملّة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك وإنما يريدون فتنته عن دينه. فأنزل الله فيهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾.

قال البراء: صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، وكان يشتهي أن يُصرف إلى الكعبة. قال: فبينا نحن نصلِّي ذات يوم، فمرّ بنا مارّ فقال: ألا هل علمتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صُرف

إلى الكعبة؟ قال: وقد صلّينا ركعتين إلى ههنا، وصلينا ركعتين إلى ههنا.

عن البراء: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوّل ما قدم المدينة نزل على أجداده أو أخواله من الأنصار، وأنه صلّى قِبل بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى صلاة العصر ومعه قوم. فخرج رجل ممّن صلّى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم ركوع، فقال: أشهد لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبل مكة. فداروا كما هم قبل البيت، وكان يعجبه أن يحوّل قِبَل البيت. وكان اليهود أعجبهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي قِبَل بيت المقدس وأهل الكتاب، فلمَّا وَلَّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك.

أنس بن مالك، قال: صلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس تسعة أشهر أو عشرة أشهر. فبينما هو قائم يصلي الظهر بالمدينة وقد صلّى ركعتين نحو بيت المقدس، انصرف بوجهه إلى الكعبة، فقال السفهاء: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾.

عن معاذ بن جبل: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، فصلّى نحو بيت المقدس ثلاثة عشر شهراً.

ذكر السبب الذي كان من أجله يصلّي رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، قبل أن يفرض عليه التوجّه شطر الكعبة

اختلف أهل العلم في ذلك فقال بعضهم: كان ذلك باختيار من النبي صلى الله عليه وسلم.

ذكر من قال ذلك:

عن عكرمة، والحسن البصري، قالا: أوّل ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن النّبي صلى الله عليه وسلم كان يستقبل صخرة بيت المقدس، وهي قبلة اليهود، فاستقبلها النبي صلى الله عليه وسلم سبعة عشر شهراً، ليؤمنوا به ويتبعوه، ويدعو بذلك الأميين من العرب، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ

وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

قال الربيع، قال أبو العالية: إن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خُيِّر أن يوجّه وجهه حيث شاء، فاختار بيت المقدس لكي يتألف أهل الكتاب، فكانت قبلته ستة عشر شهراً، وهو في ذلك يقلب وجهه في السماء ثم وجّهه الله إلى البيت الحرام.

وقال آخرون: بل كان فعل ذلك من النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه بفرض الله عزّ ذكره عليهم.

ذكر من قال ذلك:

عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود. فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ قبلة إبراهيم عليه السلام، وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية، فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا:﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾ فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾.

قال ابن جريج: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل ما صلّى إلى الكعبة، ثم صُرف إلى بيت المقدس، فصلّت الأنصار نحو بيت المقدس قبل قدومه ثلاث حجج، وصلّى بعد قدومه ستة عشر شهراً، ثم ولاّه الله جل ثناؤه إلى الكعبة.

عن قتادة قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ قال: صلَّت الأنصار نحو بيت المقدس حَوْلَين قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة، وصلّى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدّس ستة عشر شهراً، ثم وجّهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام. فقال في ذلك قائلون من الناس: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟

عَلَيْهَا ﴾ لقد اشتاق الرجل إلى مولده. فقال الله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وقيل: قائل هذه المقالة المنافقون، وإنما قالوا ذلك استهزاءً بالإسلام.

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

يعني بذلك عزّ وجلّ: قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك: ما ولاّكم عن قبلتكم من بيت المقدس التي كنتم على التوجه إليها، إلى التوجه إلى شطر المسجد الحرام: لله ملك المشرق والمغرب يعني بذلك مُلك ما بين قطري مشرق الشمس، وقطري مغربها، وما بينهما من العالم، يهدي من يشاء من خلقه فيسدّده، ويوفقه إلى الطريق القويم، وهو الصرط المستقيم. ويعني بذلك إلى قبلة إبراهيم الذي جعله للناس إماماً. ويخذل من يشاء منهم فيضله عن سبيل الحقّ. وإنما عنى جلّ ثناؤه بقوله: ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قل يا محمد إن الله هدانا بالتوجه شطر المسجد الحرام لقبلة إبراهيم، وأضلّكم أيها اليهود والمنافقون وجماعة الشرك بالله، فخذلكم عما هدانا له من ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام، وبما جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملّته، وفضّلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطاً. وقد بيّنا أن الأمة هي القرن من الناس والصنف منهم

وغيرهم. وأما الوسط فإنه في كلام العرب: الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه: أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، وهو وسط في قومه وواسط، كما قال شاة يابسة اللبن، ويَبَسة اللبن، وكما قال جل ثناؤه: فاضْرِبْ لَهُم طريقاً في البَحْرِ يَبساً. وقال زهير بن أبي سُلمى في الوسط:

هُمُ وَسَطٌ يَرْضَى الأنامُ بِحُكمِهِمْ إذا نَزَلَتْ إحْدَى اللَّيالي بِمُعْظَمِ قال: وأنا أرى أن الوسط في هاذ الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل «وسط الدار»، محرَّك الوسط مثقّله، غير جائز في سينه التخفيف. وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوّ فيه غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدَّلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها.

وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العَدل، وذلك معنى الخيار لأن الخِيار من الناس عدولهم. ذكر من قال: الوسط العدل.

عن أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال: «عُدُولاً».

عن أبي سعيد الخدري: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال: عُدُولاً.

عن ابن عباس: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ يقول: جعلكم أمة عدولاً.

عن حبان بن أبي جبلة بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال: «الوَسَطُ: العَدْلُ».

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾.

والشهداء جمع شهيد. فمعنى ذلك: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً عدولاً لتكونوا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ أنها قد بلغت ما أمرت

ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمد صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم بإيمانكم به، وبما جاءكم به من عندي. كما:

عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُدْعَى بِنُوحٍ عَلَيْه السّلامُ يَوْمَ القِيَامَة، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ ما أُرْسِلْتَ به؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لقَوْمه: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُلُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَعْلَمُ ذَاكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وأُمَّتُهُ فهو قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾».

وعن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه، إلا أنه زاد فيه: «فَيُدْعَوْنَ ويَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ».

عن المغيرة بن عيينة بن النهاس، أن مكاتَباً لهم حدثهم عن جابر بن عبدالله، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنّي وأُمَّتي لَعَلَى كَوْم يَوْمَ القِيَامَة مُشْرِفينَ عَلَى الخَلائِق مَا أَحَدٌ منَ الأُمَم إلاّ وَدَّ أَنَّهُ منْها أَيَّتُها الأُمَّةُ، وَمَا مِنْ نَبِيَ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ إلاَّ نَحْنُ شُهَدَاؤُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ رِسالاتِ رَبِّه وَنَصَحَ لَهُمْ» قال: «وَيَكُون الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً».

عن زيد بن أسلم: أن قوم نوح يقولون يوم القيامة: لم يبلغنا نوح. فيدعى نوح عليه السلام فيسأل: هل بلّغتهم؟ فيقول: نعم، فيقال: من شهودك؟ فيقول: أحمد صلى الله عليه وسلم وأمته. فتدعون فتسألون، فتقولون: نعم قد بلّغهم. فتقول قوم نوح عليه السلام: كيف تشهدون علينا ولم تدركونا؟ قالوا: قد جاء نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبرنا أنه قد بلغكم، وأنزل عليه أنه قد بلغكم، فصدقناه. قال: فيصدق نوح عليه السلام ويكذّبونهم. قال: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾».

عن راشد بن سعد، قال: أخبرني ابن أنعم المعافري، عن حبان بن أبي جبلة بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذَا جَمَعَ اللَّه عِبَاده يَوْم الْقِيَامَة، كَانَ أَوَّل مَنْ يُدْعَى إسْرَافِيل، فَيَقُول لَهُ رَبُّهُ: مَا فَعَلْتَ فِي عَهْدِي

هَلْ بَلَّغت عَهْدي؟ فَيَقُول: نَعَمْ رَبّ قَدْ بَلَّغْتُهُ جِبْرِيل عَلَيْهِمَا السَّلَام، فَيُدْعَى جِبْرِيل فَيُقَال لَهُ: هَلْ بَلَّغت إِسْرَافِيل عَهْدي؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ رَبّ قَدْ بَلَّغَني. فَيُخَلَّى عَنْ إِسْرَافِيل، وَيُقَال لِجِبْرِيل: هَلْ بَلَّغْتَ عَهْدي؟ فَيَقُول: نَعَمْ قَدْ بَلَّغْتُ الرُّسُلَ. فَتُدْعَى الرُّسُلُ فَيُقَال لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ جِبْرِيل عَهْدي؟ فَيَقُولُون نَعَمْ رَبّنَا فَيُخْلَى عَنْ جِبْرِيل، ثُمَّ يُقَال لِلرُّسُلِ: مَا فَعَلْتُمْ بِعَهْدِي؟ فَيَقُولُون: بَلَّغْنَا أُمَمنَا. فَتُدْعَى الْأُمَم فَيُقَال: هَلْ بَلَّغَكُمْ الرُّسُل عَهْدي؟ فَمِنْهُمْ الْمُكَذِّبُ وَمِنْهُمْ الْمُصَدِّقُ، فَتَقُول الرُّسُل إِنَّ لَنَا عَلَيْهِمْ شُهُوداً يَشْهَدُونَ أَنْ قَدْ بَلَّغْنَا مَعَ شَهَادَتِك. فَيَقُول: مَنْ يَشْهَدُ لَكُمْ؟ فَيَقُول أُمَّة مُحَمَّد. فَتُدْعَى أُمَّة مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَيَقُول: أَتَشْهَدُونَ أَنَّ رُسُلِي هَؤُلَاء قَدْ بَلَّغُوا عَهْدِي إِلَى مَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْه؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ رَبّنَا شَهِدْنَا أَنْ قَدْ بَلَّغُوا فَتَقُول تِلْكَ الْأُمَم: كَيْف يَشْهَدُ عَلَيْنَا مَنْ لَمْ يُدْرِكنَا؟ فَيَقُول لَهُمْ الرَّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: كَيْفَ تَشْهَدُونَ عَلَى مَنْ لَمْ يُدْرِكُوا؟ فَيَقُولُونَ: رَبّنَا بَعَثْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً، وَأَنْزَلْتَ إِلَيْنَا عَهْدك وَكِتَابك، وَقَصَصْتَ عَلَيْنَا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا، فَشَهِدْنَا بِمَا عَهِدْتَ إِلَيْنَا. فَيَقُول الرَّبُّ: صَدَقُوا فَذَلِكَ قَوْله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً». وَالْوَسَط: الْعدل. «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً».

قال ابن أنعم: فبلغني أنه يشهد يومئذٍ أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من كان في قلبه حِنَةٌ على أخيه.

قال ابن زيد في قوله:﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد على أمته، وهم شهداء على الأمم، وهم أحد الأشهاد الذي قال الله عز وجلّ: ﴿ وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ {غافر: ٥١} الأربعة الملائكة الذين يحصون أعمالنا لنا وعلينا. وقرأ قوله: ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ {ق: ٢٢}. وقال: هذا يوم القيامة. قال: والنبيون شهداء على أممهم. قال: وأمة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على الأمم، قال: والأطوار: الأجساد والجلود .

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ ولم نجعل صَرْفَك عن القبلة التي كنت على التوجه إليها يا محمد فصرفناك عنها إلا لنعلم من يتبعك ممن لا يتبعك ممن ينقلب على عقبيه. والقبلة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها التي عناها الله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ هي القبلة التي كنت تتوجه إليها قبل أن يصرفك إلى الكعبة. كما:

عن السدي:﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ يعني بيت المقدس.

عن ابن جريج، قال: قلت لعطاء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾؟ قال: القبلة: بيت المقدس.

وإنما قلنا ذلك معناه لأن محنة الله أصحاب رسوله في القبلة إنما كانت فيما تظاهرت به الأخبار عند التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة، حتى ارتدّ فيما ذكر رجال ممن كان قد أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأظهر كثير من المنافقين من أجل ذلك نفاقهم، وقالوا: ما بال محمد يحوّلنا مرّة إلى ههنا، ومرّة إلى ههنا؟ وقال المسلمون فيما مضى من إخوانهم المسلمين، وهم يصلون نحو بيت المقدس: بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت. وقال المشركون: تحيَّرَ محمد صلى الله عليه وسلم في دينه. فكان ذلك فتنة للناس وتمحيصاً للمؤمنين، فلذلك قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها، وتحويلك إلى غيرها، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ بمعنى: وما جعلنا خبرك عن الرؤيا التي أريناك. وذلك أنه لو لم يكن أخبر القوم بما كان أُري لم يكن فيه على أحد فتنة، وكذلك القبلة الأولى التي كانت نحو بيت المقدس لو لم يكن صُرف

عنها إلى الكعبة لم يكن فيها على أحد فتنة ولا محنة.

عن قتادة، قال: كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص صلّت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، وصلّى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثم وجّهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام، فقال في ذلك قائلون من الناس: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾؟ لقد اشتاقا لرجل إلى مولده قال الله عزّ وجلّ: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فقال أناس لما صرفت القبلة نحو البيت الحرام: كيف بأعمالنا التي كنّا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ وقد يبتلي الله العباد بما شاء من أمره الأمر بعد الأمر، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. وكل ذلك مقبول إذا كان في إيمان بالله، وإخلاص له، وتسليم لقضائه.

ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدي، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي قبل بيت المقدس، فنسختها الكعبة. فلما توجّه قبل المسجد الحرام، اختلف الناس فيها، فكانوا أصنافاً فقال المنافقون: ما بالهم كانا على قبلة زماناً ثم تكوها وتوجهوا إلى غيرها؟ وقال المسلمون: ليت شعرنا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون قِبَل بيت المقدس، هل تقبّل الله منا ومنهم أو لا؟ وقالت اليهود: إن محمداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر. وقال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه، فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنكم كنتم أهدى منه، ويوشك أن يدخل في دينكم. فأنزل الله جل ثناؤه في المنافقين: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ وأنزل في الآخرين الآيات بعدها.

عن ابن جريج، قال: قلت لعطاء: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؟ فقال عطاء: يبتليهم ليعلم من يسلم لأمره. قال ابن جريج: بلغني أن ناساً ممّن أسلم رجعوا فقالوا: مرّة ههنا ومرّة ههنا.

فإن قال لنا قائل: أوَما كان الله عالماً بمن يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه إلا بعد اتباع المتبع، وانقلاب المنقلب على عقبيه، حتى قال: ما فعلنا الذي فعلنا من تحويل القبلة إلا لنعلم المتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنقلب على عقبيه؟ قيل: إن الله جل ثناؤه هو العالم بالأشياء كلها قبل كونها، وليس قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يخبر أنه لم يعلم ذلك إلا بعد وجوده.

فإن قال: فما معنى ذلك؟ قيل له: أما معناه عندنا فإنه: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا ليعلم رسولي وحزبي وأوليائي من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه. فقال جل ثناؤه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ومعناه: ليعلم رسولي وأوليائي، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولياؤه من حزبه، وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس إلى الرئيس، وما فعل بهم إليه نحو قولهم: فتح عمر بن الخطاب سواد العراق، وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك أصحابه عن سبب كان منه في ذلك.

وأما قوله: ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ فإن يعني: الذي يتبع محمداً صلى الله عليه وسلم فيما يأمره الله به، فيوجه نحو الوجه الذي يتوجّه نحوه محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فإنه يعني: من الذي يرتدّ عن دينه، فينافق، أو يكفر، أو يخالف محمداً صلى الله عليه وسلم في ذلك ممن يظهر أتباعه. كما:

ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

وأصل المرتدّ على عقبيه: هو المنقلب على عقبيه الراجع مستدبراً في الطريق الذي قد كان قطعه منصرفاً عنه، فقيل ذلك لكل راجع عن أمر كان فيه من دين أو خير، ومن ذلك قوله: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ بمعنى رجعا في الطريق الذي كانا سلكاه.

﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

اختلف أهل التأويل في التي وصفها الله جلّ وعزّ بأنها كانت كبيرة إلا على الذين هدى الله.

فقال بعضهم: عنى جل ثناؤه بالكبيرة: التولية من بيت المقدس شطر المسجد الحرام والتحويل، وإنما أنّث الكبيرة لتأنيث التولية.

عن ابن عباس: قال الله: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ يعني تحويلها.

عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ قال: ما أمروا به من التحوّل إلى الكعبة من بيت المقدس.

وقال آخرون: بل الكبيرة هي القبلة بعينها التي كان صلى الله عليه وسلم يتوجّه إليها من بيت المقدس قبل التحويل.

وقال بعضهم: بل الكبيرة: هي الصلاة التي كانوا يصلّونها إلى القبلة الأولى.

فتأويل الكلام على ما تأوله قائلو هذه المقالة: وما جعلنا تحويلتنا إياك عن القبلة التي كنت عليها وتوليتناك عنها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت تحويلتنا إياك عنها وتوليتناك لكبيرة إلا على الذين هدى الله.

وهذا التأويل أولى التأويلات عندي بالصواب، لأن القوم إنما كبر عليهم تحويل النبي صلى الله عليه وسلم وجهه عن القبلة الأولى إلى الأخرى لا عين القبلة ولا الصلاة لأن القبلة الأولى والصلاة قد كانت وهي غير كبيرة عليهم إلا أن يوجه موجِّه تأنيث الكبيرة إلى القبلة، ويقول: اجتزئ بذكر القبلة من ذكر

التولية والتحويلة لدلالة الكلام على معنى ذلك، كما قد وصفنا لك في نظائره، فيكون ذلك وجهاً صحيحاً ومذهباً مفهوماً. ومعنى قوله: ﴿كَبِيرَةً﴾ عظيمة.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾ قيل: عنى بالإيمان في هذا الموضع الصلاة.

عن ابن عباس، قال: لما وجِّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك وهم يصلّون نحو بيت المقدس. فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾.

عن البراء في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾ قال: صلاتكم نحو بيت المقدس.

عن البراء قال: مات على القبلة قبل أن تحوّل إلى البيت رجال وقُتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى ذكر: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾.

عن السديّ، قال: لما توجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَل المسجد الحرام، قال المسلمون: ليت شعرنا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يصلّون قِبَل بيت المقدس، هل تقبّل الله منا ومنهم أم لا؟ فأنزل الله جل ثناؤه فيهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾ قال: صلاتكم قِبَل بيت المقدس، يقول: إن تلك طاعة وهذه طاعة.

قد دللنا فيما مضى على أن الإيمان التصديق، وأن التصديق قد يكون بالقول وحده وبالفعل وحده وبهما جميعاً بمعنى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾ على ما تظاهرت به الرواية من أنه الصلاة: وما كان الله ليضيع تصديق رسوله عليه الصلاة والسلام بصلاتكم التي صلّيتموها نحو بيت المقدس عن أمره لأن ذلك كان منكم تصديقاً لرسولي، واتباعاً لأمري، وطاعة منكم لي.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾.

ويعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ أن الله بجميع عباده ذو رأفة. والرأفة أغلى معاني الرحمة، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا ولبعضهم في الآخرة. وأما الرحيم، فإنه ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا

والآخرة على ما قد بيّنا فيما مضى قبل. وإنما أراد جل ثناؤه بذلك أن الله عزّ وجلّ أرحم بعباده من أن يضيع لهم طاعة أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها، وأرأف بهم من أن يؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم. أي ولا تأسوا على موتاكم الذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس، فإني لهم على طاعتهم إياي بصلاتهم التي صلّوها كذلك مثيب، لأني أرحم بهم من أن أضيع لهم عملاً عملوه لي. ولا تحزنوا عليهم، فإني غير مؤاخذهم بتركهم الصلاة إلى الكعبة، لأني لم أكن فرضت ذلك عليهم، وأنا أرأف بخلقي من أن أعاقبهم على تركهم ما لم آمرهم بعمله.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

يعني بذلك جل ثناؤه: قد نرى يا محمد نحن تقلّب وجهك في السماء. ويعني بالتقلّب: التحوّل والتصرّف. ويعني بقوله: ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ نحو السماء وقِبَلها.

وإنما قيل له ذلك صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا، لأنه كان قبل تحويل قبلته من بيت لمقدس إلى الكعبة يرفع بصره إلى السماء ينتظر من الله جل ثناؤه أمره بالتحويل نحو الكعبة. كما:

عن قتادة في قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال: كان صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في السماء يحبّ أن يصرفه الله عزّ وجلّ إلى الكعبة حتى صرفه الله إليها.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فكان نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلّي نحو بيت المقدس، يَهْوَى ويشتهي القبلة نحو البيت الحرام، فوجهه الله جل ثناؤه لقبلة كان يهواها ويشتهيها.

عن الربيع في قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول: نظرك في

السماء. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في الصلاة وهو يصلّي نحو بيت المقدس، وكان يَهْوَى قبلة البيت الحرام، فولاّه الله قبلة كان يهواها.

ثم اختلف في السبب الذي من أجله كان صلى الله عليه وسلم يهوى قبلة الكعبة.

قال بعضهم: كره قبلة بيت المقدس، من أجل أن اليهود قالوا: يتبع قبلتنا ويخالفنا في ديننا.

وقال آخرون: بل كان يهوى ذلك من أجل أنه كان قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام.

عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله عزّ وجل أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة عشر شهراً. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾. الآية.

فأما قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ فإنه يعني: فلنصرفنّك عن بيت المقدس إلى قبلة ترضاها، تهواها وتحبها.

وأما قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ يعني اصرف وجهك وحوّله. وقوله: ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني بالشطر: النحو والقصد والتلقاء.

ثم اختلفوا في المكان الذي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يولي وجهه إليه من المسجد الحرام.

فقال بعضهم: القبلة التي حوّل إليها النبي صلى الله عليه وسلم وعناها الله تعالى ذكره بقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ حيال ميزاب الكعبة.

عن عبدالله بن عمرو: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ حيال ميزاب الكعبة.

وقال آخرون: بل ذلك البيت كله قبلة، وقبلة البيت الباب.

عن ابن عباس: البيت كلّه قبلة، وهذه قبلة البيت، يعني التي فيها الباب.

والصواب من القول في ذلك عندي ما قال الله جل ثناؤه: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فالمولّي وجهه شطر المسجد الحرام هو المصيب القبلة.

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.

يعني جل ثناؤه بذلك: فأينما كنتم من الأرض أيها المؤمنون فحوّلوا وجوهكم في صلاتكم نحو المسجد الحرام وتلقاءه. والهاء التي في «شطره» عائدة إلى المسجد الحرام. فأوجب جلّ ثناؤه بهذه الآية على المؤمنين فرض التوجّه نحو المسجد الحرام في صلاتهم حيث كانوا من أرض الله تبارك وتعالى. وأدخلت الفاء في قوله: ﴿ فَوَلُّوا۟ ﴾ جواباً للجزاء، وذلك أن قوله: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ جزاء، ومعناه: حيثما تكونوا فولّوا وجوهكم شطره.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾.

يعني بقوله جل ثناؤه: وإن الذين أوتوا الكتاب أحبار اليهود وعلماء النصارى. وقد قيل إنما عنى بذلك اليهود خاصة.

ذكر من قال ذلك:

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أنزل ذلك في اليهود: وقوله: ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني هؤلاء الأحبار والعلماء من أهل الكتاب، يعلمون أن التوجّه نحو المسجد الحقّ الذي فرضه الله عزّ وجلّ على إبراهيم وذرّيته وسائر عباده بعده.

ويعني بقوله: ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أنه الفرض الواجب على عباد الله تعالى ذكره، وهو الحقّ من عند ربهم فرضه عليهم.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

يعني بذلك تبارك وتعالى: وليس الله بغافل عما تعملون أيها المؤمنون في اتباعكم أمره وانتهائكم إلى طاعته فيما ألزمكم من فرائضه وإيمانكم به في صلاتكم نحو بيت المقدس ثم صلاتكم من بعد ذلك شطر المسجد

الحرام، ولا هو ساهٍ عنه، ولكنه جل ثناؤه يحصيه لكم ويدّخره لكم عنده حتى يجازيكم به أحسن جزاء، ويثيبكم عليه أفضل ثواب.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٤٥.

يعني بذلك تبارك اسمه: ولئن جئت يا محمد اليهود والنصارى بكل برهان وحجّة وهي الآية بأن الحقّ هو ما ئجتهم به من فرض التحوّل من قبلة بيت المقدّس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدّقوا به ولا اتبعوا مع قيام الحجة عليهم بذلك قبلتك التي حوّلتك إليه وهي التوجه شطر المسجد الحرام. وأجيبت «لئن» بالماضي من الفعل وحكمها الجواب بالمستقبل تشبيهاً لها بـ«لو»، فأجيبت بما تجاب به لو لتقارب معنييهما وقد مضى البيان عن نظير ذلك فيما مضى.

فكان معنى الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا: لو أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك.

وأما قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾يقول: وما لك من سبيل يا محمد إلى اتباع قبلتهم، وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدّس بصلاتها، وأن النصارى تستقبل المشرق، فأنّى يكون لك السبيل إلى اتباع قبلتهم مع اختلاف وجوهها. يقول: فالزم قبلتك التي أُمرت بالتوجّه إليها، ودع عنك ما تقوله اليهود والنصارى، وتدعوك إليه من قبلتهم واستقبالها.

وأما قوله: ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ فإنه يعني بقوله: وما اليهود بتابعة قبلة النصارى، ولا النصارى بتابعة قبلة اليهود فمتوجّهة نحوها. كما:

عن السدي: ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ يقول: ما اليهود بتابعي قبلة النصارى، ولا النصارى بتابعي قبلة اليهود. قال: وإنما أنزلت هذه الآية من أجل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما حُوّل إلى الكعبة، قالت اليهود: إن

محمداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولدهن ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر فأنزل الله عز وجلّ فيهم: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾: ولئن التمست يا محمد رضا هؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ فاتبعت قبلتهم يعني فرجعت إلى قبلتهم.

ويعني بقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ آل عمران - ٦١ من بعد ما وصل إليك من العلم بإعلامي إياك أنهم مقيمون على باطل وعلى عناد منهم للحقّ، ومعرفة منهم أن القبلة التي وجهتك إليها هي القبلة التي فُرِضَت على أبيك إبراهيم عليه السلام وسائر ولده من بعده من الرسل التوجه نحوها ﴿إنك إذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني أنك إذا فعلت ذلك من عبادي الظلمة أنفسهم، المخالفين أمري، والتاركين طاعتي، وأحدُهم وفي عدادهم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ أحبار اليهود وعلماء النصارى. يقول: يعرف هؤلاء الأحبار من اليهود والعلماء من النصارى أن البيت الحرام قبلتهم وقبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك، كما يعرفون أبناءهم. كما:

عن قتادة قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾يقول: يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة.

عن الربيع في قول الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ يعني القبلة.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: وإن طائفة من الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى. وكان مجاهد يقول: هم أهل الكتاب.

قال أبو جعفر: وقوله: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ وذلك الحقّ هو القبلة التي وجه الله عز وجلّ إليها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، يقول: فولّ وجهك شطر المسجد الحرام التي كانت الأنبياء من قبل محمد صلى الله عليه وسلم يتوجهون إليها. فكتمتها اليهود والنصارى، فتوجّه بعضهم شرقاً وبعضهم نحو بيت المقدس، ورفضوا ما أمرهم الله به، وكتموا مع ذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. فأطل الله عز وجلّ نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته على خيانتهم الله تبارك وتعالى، وخيانتهم عباده، وكتمانهم ذلك، وأخبر أنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك على علم منهم بأن الحقّ غيره، وأن الواجب عليهم من الله جل ثناؤه خلافه فقال: ليكتمون الحقّ وهم يعلمون أن ليس لهم كتمانه، فيتمدون معصية الله تبارك وتعالى.

عن قتادة قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فكتموا محمداً صلى الله عليه وسلم.

عن مجاهد: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: يكتمون محمداً صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول الله جل ثناؤه: اعلم يا محمد أن الحقّ ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى. وهذا من الله تعالى ذكره خبر لنبيه عليه الصلاة والسلام عن أن القبلة التي وجهه نحوها هي القبلة الحقّ التي كان عليها إبراهيم خليل الرحمن، ومن بعده من أنبياء الله عزّ وجلّ. يقول تعالى ذكره له: فاعمل بالحقّ الذي أتاك من ربك يا محمد ولا تكوننّ من

الممترين، يعني بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي فلا تكونن من الشاكين في أن القبلة التي وجهتك نحوها قبلة إبراهيم خليلي عليه السلام وقبلة الأنبياء وغيره. كما:

عن الربيع، قال: قال الله تعالى ذكره لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يقول: لا تكن في شكّ أنها قبلتك وقبلة الأنبياء من قبلك.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذكره: ولكلّ أهل ملة، فحذف أهل الملّة واكتفى بدلالة الكلام عليه. كما:

عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾قال: لكل صاحب ملّة.

عن الربيع: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ فلليهود وجهة هو مولّيها وللنصارى وجهة هو مولّيها، وهداكم الله عزّ وجل أنتم أيتها الأمة للقبلة التي هي قبلته.

فتأويل أهل هذه المقالة في هذه الآية: ولكل أهل ملّة قبلة هو مستقبلها ومولّ وجهه إليها. وقال آخرون بما:

عن قتادة: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ قال: هي صلاتهم إلى بيت المقدس وصلاتهم إلى الكعبة.

وتأويل قائل هذه المقالة: ولكل ناحية وجّهك إليها ربك يا محمد قبلة الله عز وجل موليها عباده. وأما الوجهة فإنها مصدر مثل القِعْدة والمِشْية من التوجه، وتأويلها: متوجّه يتوجّه إليها بوجهه في صلاته.

ومعنى التولية ههنا الإقبال، كما يقول القائل لغيره: انصرف إليّ، بمعنى أقبل إليّ والانصراف المستعمل إنما هو الانصراف عن الشيء، ثم يقال: انصرف إلى الشيء بمعنى أقبل إليه منصرفاً عن غيره. وكذلك يقال: وليت عنه: إذا أدبرت عنه، ثم يقال: ولّيت إليه بمعنى أقبلت إليه مولّياً عن غيره.

والفعل، أعني التولية في قوله: ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ للـ«كلّ» و«هو» التي مع «موليها» هو «الكل» وُحِّدت للفظ «الكل».

فمعنى الكلام إذاً: ولكل أهل ملّة وجهة، الكلُّ منهم مولّوها وجوههم.

﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾.

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ فبادروا وسارعوا، من «الاستباق»، وهو المبادرة والإسراع. كما:

عن الربيع قوله: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ يعني فسارعوا في الخيرات. وإنما يعني بقوله: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ أي قد بيّنت لكم أيها المؤمنون الحق وهديتكم للقبلة التي ضلّت عنها اليهود والنصارى وسائر أهل الملل غيركم، فبادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم، وتزوّدوا في دنياكم لأخراكم، فإني قد بيّنت لكم سبيل النجاة فلا عذر لكم في التفريط، وحافظوا على قبلتكم، ولا تضيعوها كما ضيّعها الأمم قبلكم فتضلّوا كما ضلّت كالذي:

قال ابن زيد في قوله: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ قال: الأعمال الصالحة.

﴿ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾.

ومعنى قوله: ﴿ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ في أيّ مكان وبقعة تهلكون فيه يأت بكم الله جميعاً يوم القيامة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾. كما:

عن الربيع: ﴿ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يقول: أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً يوم القيامة.

﴿ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يعني يوم القيامة. وإنما حضّ الله عزّ وجلّ المؤمنين بهذه الآية على طاعته والتزوّد في الدنيا للآخرة، فقال جل ثناؤه لهم: استبقوا أيها المؤمنون إلى العمل بطاعة ربكم، ولزوم ما هداكم له من قبلة إبراهيم خليله وشرائع دينه، فإن الله تعالى ذكره يأتي بكم وبمن خالف قبلكم ودينكم وشريعتكم جميعاً يوم القيامة من حيث كنتم من بقاع الأرض، حتى يوفى المحسن منكم جزاءه بإحسانه، والمسيء عقابه بإساءته،

أو يتفضل فيصفح.

وأما قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ فإنه تعالى ذكره يعني أن الله تعالى على جمعكم بعد مماتكم من قبوركم من حيث كنتم وعلى غير ذلك مما يشاء قدير، فبادروا خروج أنفسكم بالصالحات من الأعمال قبل مماتكم ليوم بعثكم وحشركم.

﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ ﴾ ومن أيّ موضع خرجت إلى أيّ موضع وجهت فولّ يا محمد وجهك، يقول: حوّل وجهك. وقد دللنا على أن التولية في هذا الموضع شطر المسجد الحرام، إنما هي الإقبال بالوجه نحوه وقد بيّنا معنى الشطر فيما مضى.

وأما قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره: وإن التوجه شطره للحقّ الذي لا شك فيه من عند ربك، فحافظوا عليه، وأطيعوا الله في توجهكم قِبَله.

وأما قوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فإنه يقول: فإن الله تعالى ذكره ليس بساهٍ عن أعمالكم ولا بغافل عنها، ولكنه محصيها لكم حتى يجازيكم بها يوم القيامة.

﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠ ﴾

يعني بقوله تعالى: ذكره: ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾: من أيّ مكان وبقعة شخصت فخرجت يا محمد، فولّ وجهك تلقاء المسجد الحرام وهو شطره.

ويعني بقوله: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله فولّوا وجوهكم في صلاتكم تجاهه وقِبَله وقصده.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾.

فقال جماعة من أهل التأويل: عنى الله تعالى بالناس في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أهل الكتاب.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ يعني بذلك أهل الكتاب، قالوا حين صُرِف نبيّ الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة البيت الحرام: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه.

عن الربيع في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ يعني بذلك أهل الكتاب، قالوا حين صُرِف نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه.

فإن قال قائل: فأية حجة كانت لأهل الكتاب بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه؟ قيل: قد ذكرنا فيما مضى ما رُوي في ذلك، قيل إنهم كانوا يقولون: ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن، وقولهم: يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا! فهي الحجة التي كانوا يحتجون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على وجه الخصومة منهم لهم، والتمويه منهم بها على الجهال وأهل العناد من المشركين. وقد بيّنا فيما مضى أن معنى حجاج القوم إياه الذي ذكره الله تعالى ذكره في كتابه إنما هي الخصومات والجدال، فقطعه الله جل ثناؤه ذلك من حجتهم وحسمه بتحويل قبلة نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به من قبلة اليهود إلى قبلة خليله إبراهيم عليه السلام، وذلك هو معنى قول الله جل ثناؤه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ يعني بالناس: الذين كانوا يحتجون عليهم بما وصفت.

وأما قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فإنهم مشركو العرب من قريش فيما

تأوّله أهل التأويل.

عن مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ قوم محمد صلى الله عليه وسلم.

عن السدي، قال: هم المشركون، من أهل مكة.

عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ قال: هم مشركو العرب.

فإن قال قائل: وأية حجة كانت لمشركي قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في توجههم في صلاتهم إلى الكعبة؟ وهل يجوز أن يكون للمشركين على المؤمنين حجة فيما أمرهم الله تعالى ذكره به أو نهاهم عنه؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما توهمت وذهبت إليه، وإنما الحجة في هذا الموضع الخصومة والجدال. ومعنى الكلام: لئلا يكون لأحد من الناس عليكم خصومة ودعوى باطلة، غير مشركي قريش، فإن لهم عليكم دعوى باطلة وخصومة بغير حقّ بقيلهم لكم: رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا. فذلك من قولهم وأمانيهم الباطلة هي الحجة التي كانت لقريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن أجل ذلك استثنى الله تعالى ذكره الذين ظلموا من قريش من سائر الناس غيرهم، إذ نفى أن يكون لأحد منهم في قبلتهم التي وجههم إليها حجة. وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

عن مجاهد في قول الله تعالى ذكره: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ قوم محمد صلى الله عليه وسلم قال مجاهد: يقول: حجتهم، قولهم: قد رجَعْتَ قبلَتنا.

عن مجاهد مثله إلا أنه قال قولهم: قد رجعت إلى قبلتنا.

عن مجاهد في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ قالا: هم مشركو العرب، قالوا حين صرفت القبلة إلى الكعبة: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم. قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾.

عن سعيد عن قتادة قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ والذين ظلموا مشركو قريش، يقول: إنهم سيحتجون عليكم بذلك، فكانت حجتهم على نبي الله صلى الله عليه وسلم بانصرافه إلى البيت الحرام أنهم قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، فأنزل الله تعالى ذكره في ذلك كله.

وأما قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ يعني فلا تخشوا هؤلاء الذين وصفت لكم أمرهم من الظَّلَمة في حجتهم وجدالهم وقولهم ما يقولون من أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد رجع إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، أو أن يقدروا لكم على ضرّ في دينكم أو صدّكم عما هداكم الله تعالى ذكره له من الحق ولكن اخشوني، فخافوا عقابي في خلافكم أمري إن خالفتموه. وذلك من الله جل ثناؤه تقدُّمٌ إلى عباده المؤمنين بالحضّ على لزوم قبلتهم والصلاة إليها، وبالنهي عن التوجه إلى غيرها. يقول جلّ ثناؤه: واخشوني أيها المؤمنون في ترك طاعتي فيما أمرتكم به من الصلاة شطر المسجد الحرام. وقد حكي عن السدي في ذلك ما:

قال: ثنا أسباط عن السدي: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ يقول: لا تخشوا أن أَرُدّكُم في دينهم.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾: ومن حيث خرجت من البلاد والأرض إلى أي بقعة شخصت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث كنت يا محمد والمؤمنون، فولّوا وجوهكم في صلاتكم شطره، واتخذوه قبلة لكم، كيلا يكون لأحد من الناس سوى مشركي قريش حجة، ولأتمّ بذلك من هدايتي لكم إلى قبلة خليلي إبراهيم عليه السلام الذي جعلته إماماً للناس نعمتي فأكمل لكم به فضلي عليكم، وأتمم به شرائع ملّتكم الحنيفية المسلمة التي وصيت بها نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء غيرهم. وذلك هو نعمته التي أخبر جلّ ثناؤه أنه متمّها على رسوله صلى

الله عليه وسلّم والمؤمنين به من أصحابه.

وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ يعني: وكي ترشدوا للصواب من القِبلة.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا ﴾ ولأتمّ نعمتي عليكم ببيان شرائع ملّتكم الحنيفية، وأهديكم لدين خليلي إبراهيم عليه السلام، وأجعل لكم دعوته التي دعاني بها ومسألته التي سألنيها فقال: لا ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ كما جعلت لكم دعوته التي دعاني بها ومسألته التي سألنيها، فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ فابتعثت منكم رسولي الذي سألني إبراهيم خليلي وابنه إسماعيل أن أبعثه من ذرّيتهما. فكما إذ كان ذلك معنى الكلام صلة لقول الله عز وجل: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ ولا يكون قوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾.

قوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ فإنه يعني بذلك العرب، قال لهم جل ثناؤه: الزموا أيها العرب طاعتي، وتوجهوا إلى القبلة التي أمرتكم بالتوجّه إليها، لتنقطع حجة اليهود عنكم، فلا تكون لهم عليكم حجة، ولأتمّ نعمتي عليكم وتهتدوا، كما ابتدأتكم بنعمتي فأرسلت فيكم رسولاً إليكم منكم، وذلك الرسول الذي أرسله إليكم منهم محمد صلى الله عليه وسلم. كما:

عن الربيع في قوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ فإنه يعني آيات القرآن، وبقوله: ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ ويطهركم من دنس الذنوب، ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو

الفرقان، يعني أنه يعلمهم أحكامه، ويعني بالحكمة: السنن والفقه في الدين.

وأما قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإنه يعني: ويعلمكم من أخبار الأنبياء، وقصص الأمم الخالية، والخبر عما هو حادث وكائن من الأمور التي لم تكن العرب تعلمها، فَعُلِّموها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم جل ثناؤه أن ذلك كله إنما يدركونه برسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: فاذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمركم به وفيما أنهاكم عنه، أذكركم برحمتي إياكم ومغفرتي لكم. كما:

عن سعيد بن جبير: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال: اذكروني بطاعتي، أذكركم بمغفرتي.

وقد كان بعضهم يتأوّل ذلك أنه من الذكر بالثناء والمدح.

عن الربيع في قوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ إن الله ذاكرٌ من ذكره، وزائدٌ من شكره، ومعذّبٌ من كفره.

عن السدي: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال: ليس من عبد يذكر اللّه إلا ذكره اللّه، لا يذكره مؤمن إلا ذكره برحمة، ولا يذكره كافر إلا ذكره بعذاب.

﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

يعني تعالى ذكره بذلك: اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ يقول: ولا تجحدوا إحساني إليكم، فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم، ولكن اشكروا لي عليها، وأزيدكم، فأتمم نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديت له من رضيت عنه من عبادي، فإني وعدت خلقي أن من شكر لي زدته، ومن كفرني حرمته وسلبته ما أعطيته.

وقد دللنا على أن معنى الشكر: الثناء على الرجل بأفعاله المحمودة، وأن معنى الكفر تغطية الشيء فيما مضى قبل فأغنى ذلك عن إعادته ههنا.

الطبرسي:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾

المعنى: ثم ذكر سبحانه الذين عابوا المسلمين بالانصراف عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة، فقال ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي سوف يقول الجهال وهم الكفار الذين هم بعض الناس﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ﴾ أي: أيُّ شيء حوَّلهم وصرفهم، يعني المسلمين، عن بيت المقدس الذي كانوا يتوجهون إليها في صلاتهم.

اختلف في الذين قالوا ذلك، فقال ابن عباس وغيره: هم اليهود. وقال الحسن: هم مشركو العرب، وإن رسول الله لما حول الكعبة من بيت المقدس، قالوا: يا محمد! رغبت عن قبلة آبائك ثم رجعت إليها، فلترجعن إلى دينهم. وقال السدي: هم المنافقون، قالوا ذلك استهزاء بالإسلام.

واختلف في سبب مقالتهم ذلك، فقيل: إنهم قالوا ذلك على وجه الإنكار للنسخ، عن ابن عباس. وقيل: إنهم قالوا يا محمد! ما ولّاك عن قبلتك التي كنت عليها؟ ارجع إلى قبلتنا نتبعك، ونؤمن بك. أرادوا بذلك فتنته، عن ابن عباس أيضاً. وقيل: إنما قاله مشركو العرب ليوهموا أن الحق ما هم عليه.

وأما الوجه في الصرف عن القبلة الأُولى ففيه قولان أحدهما: أنه لما علم الله تعالى في ذلك من تغير المصلحة والآخر: أنه لما بيّنه سبحانه بقوله ﴿ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ﴾ لأنهم كانوا بمكة، أُمروا أنْ يتوجهوا إلى بيت المقدس ليتميزوا من المشركين الذين كانوا يتوجهون إلى الكعبة. فلما انتقل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) إلى المدينة، كانت اليهود يتوجهون إلى بيت المقدس، فأُمروا بالتوجه إلى الكعبة ليتميزوا من أولئك. ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ ﴾ هو أمر من الله سبحانه لنبيه أن يقول لهؤلاء الذين عابوا انتقالهم من بيت المقدس إلى الكعبة: المشرق والمغرب

ملك لله سبحانه، يتصرف فيهما كيف شاء على ما تقتضيه حكمته. وفي هذا إبطال لقول من زعم أن الأرض المقدسة أولى بالتوجه إليها، لأنها مواطن الأنبياء، وقد شرَّفها الله وعظَّمها، فلا وجه للتولية عنها، فردَّ الله سبحانه عليهم بأن المواطن كلها لله، يشرّف منها ما يشاء في كل زمان على ما يعلمه من مصالح العباد.

وعن ابن عباس: كانت الصلاة إلى بيت المقدس بعد مقدم النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) المدينة سبعة عشر شهراً. وعن البراء بن عازب. قال: صليت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفنا نحو الكعبة. أورده مسلم في الصحيح. وعن أنس بن مالك: إنما كان ذلك تسعة أشهر، أو عشرة أشهر. وعن معاذ بن جبل: ثلاثة عشر شهراً.

ورواه علي بن إبراهيم بإسناده عن الصادق (عليه السلام) قال: تحولت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) بمكة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة، صلى إلى بيت المقدس سبعة أشهر قال: ثم وجَّهه الله إلى الكعبة وذلك أن اليهود كانوا يُعيّرون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) ويقولون له: أنت تابع لنا، تصلي إلى قبلتنا! فاغتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) من ذلك غماً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء، ينتظر من الله تعالى في ذلك أمراً. فلما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر، كان في مسجد بني سالم قد صلّى من الظهر ركعتين، فنزل عليه جبرائيل (عليه السلام) فأخذ بعضديه، وحوَّله إلى الكعبة، وأنزل عليه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وكان صلى ركعتين إلى بيت المقدس، وركعتين إلى الكعبة، فقالت اليهود والسفهاء: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾؟

قال الزجاج: إنما أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس، لأن مكة بيت الله الحرام، كانت العرب آلفة لحجه، فأحب الله أن يمتحن القوم بغير ما ألفوه، ليظهر من يتبع الرسول ممن لا يتبعه. وقوله ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يدلّه ويرشده إلى الدين. وإنما سماه الصراط، لأنه طريق الجنة المؤدي إليها، كما يؤدي الطريق إلى المقصد. وقيل طريق الجنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

المعنى:

ثم بين سبحانه فضل هذه الأُمة على سائر الأُمم، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وقد ذكرنا وجه تعلق الكاف المضاف إلى ذلك بما تقدم. أخبر عز اسمه أنه جعل أُمة نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) عدلاً وواسطة بين الرسول والناس. ومتى قيل: إذا كان في الأُمة من ليس هذه صفته، فكيف وصف جماعتهم بذلك؟ فالجواب: أن المراد به من كان بتلك الصفة، ولأن كل عصر لا يخلو من جماعة هذه صفتهم.

وروى بريد بن معاوية العجلي عن الباقر (عليه السلام): نحن الأُمة الوسط، ونحن شهداء الله على خلقه، وحجته في أرضه. وفي رواية أُخرى قال: إلينا يرجع الغالي، وبنا يلحق المقصر. وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن علي (عليه السلام): إن الله تعالى إيانا عنى بقوله ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فرسول الله شاهد علينا، ونحن شهداء الله على خلقه، وحجته في أرضه، ونحن الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

وقوله ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال أحدها: إن المعنى لتشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا فيها الحق في الدنيا وفي الآخرة، كما قال: ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾{ نور :٢٤}، وقال:﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ { غافر: ٥١}. وقال ابن زيد: الأشهاد أربعة: الملائكة والأنبياء وأمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) والجوارح كما قال:﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ﴾الآية والثاني: إن المعنى لتكونوا حجة على الناس، فتبينوا لهم الحق والدين، ويكون الرسول عليكم شهيداً، مؤدياً للدين إليكم، وسمي الشاهد شاهداً لأنه يبين ولذلك يقال للشهادة بينة. والثالث: إنهم يشهدون للأنبياء على أُممهم المكذبين لهم، بأنهم قد بَلّغوا، وجاز ذلك لإعلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) إياهم بذلك.

وقوله ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ أي: شاهداً عليكم بما يكون من أعمالكم. وقيل: حجة عليكم. وقيل: شهيداً لكم بأنكم قد صدقتم يوم القيامة فيما تشهدون به، وتكون على بمعنى اللام، كقوله:﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ أي: للنصب وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ قيل: معنى ﴿ كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾: صرت عليها، وأنت عليها يعني الكعبة. كقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ { آل عمران :١١٠} أي: أنتم خير أُمة. وقيل: هو الأصح يعني بيت المقدس الذي كانوا يصلون إليها أي: ما صرفناك عن القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم، أو ما جعلنا القبلة التي كنت عليها فصرفناك عنها ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ وحذف لدلالة الكلام عليه.

وفي قوله ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ أقوال أولها: إن معناه ليعلم حزبنا من النبي والمؤمنين، كما يقول الملك: فتحنا بلد كذا، أو فعلنا كذا أي: فتح أولياؤنا. والثاني: إن معناه ليحصل المعلوم موجوداً، وتقديره ليعلم أنه موجود، فلا يصح وصفه بأنه عالم بوجود المعلوم قبل وجوده. والثالث: إن معناه لنعاملكم معاملة المختبر الممتحن الذي كأنه لا يعلم، إذ العدل يوجب

ذلك من حيث لو عاملهم بما يعلم أنه يكون منهم قبل وقوعه كان ظلماً.

والرابع: ما قاله علم الهدى المرتضى، قدس الله روحه، وهو: إن قوله ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ تقتضي حقيقة أنْ يعلم هو وغيره، ولا يحصل علمه مع علم غيره، إلا بعد حصول الإتباع. فأما قبل حصوله، فيكون القديم سبحانه هو المنفرد بالعلم به، فصح ظاهر الآية.

وقوله﴿ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي: يؤمن به، ويتبعه في أقواله وأفعاله. ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ فيه قولان أحدهما: إن قوماً ارتدوا عن الإسلام لما حولت القبلة جهلاً منهم بما فيه من وجوه الحكمة. والآخر: إن المراد به كل مقيم على كفره، لأن جهة الإستقامة إقبال، وخلافها إدبار، ولذلك وصف الكافر بأنه أدبر واستكبر، وأنه كذب وتولى أي: عن الحق. وقوله ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ الضمير في ﴿كَانَتْ ﴾ يعود إلى القبلة على قول أبي العالية، أي: وقد كانت القبلة كبيرة. وقيل: الضمير يرجع إلى التحويلة وما أرقة القبلة الأُولى، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وهو الأَقوى، لأن القوم إنما ثقل عليهم التحول لا نفس القبلة. وقيل: الضمير يرجع إلى الصلاة، عن ابن زيد. وقوله ﴿لَكَبِيرَةً ﴾: قال الحسن: معناه ثقيلة يعني التحويلة إلى بيت المقدس، لأن العرب لم تكن قبلة أَحب إليهم من الكعبة. وقيل: معناه عظيمة على من لا يعرف ما فيها من وجه الحكمة. فأما الذين هداهم الله لذلك، فلا تعظم عليهم، وهم الذين صدّقوا الرسول في التحول إلى الكعبة، وإنما خص المؤمنين بأنه هداهم وإنْ كان قد هدى جميع الخلق، لأنه ذكرهم على طريق المدح، ولأنهم الذين انتفعوا بهدى الله، وغيرهم كأنه لم يتعدّ بهم.

وقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ قيل فيه أقوال أحدها: أنه لما حوّلت القبلة قال ناس: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأُولى؟ فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ عن ابن عباس وقتادة. وقيل: أنهم قالوا: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك؟ وكان قد مات أسعد بن زرارة،

والبراء بن معرور، وكانا من النقباء. فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. ويمكن على هذا أَنْ يحمل الإيمان على أصله في التصديق أي: لا يضيع تصديقكم بأمر تلك القبلة.

وثانيها: أنه لما ذكر ما عليهم من المشقة في التحويلة، تبعه بذكر ما لهم عنده بذلك من المثوبة، وأنه لا يضيع ما عملوه من الكلفة فيه، لأن التذكير به يبعث على ملازمة الحق، والرضا به، عن الحسن وثالثها: أنه لما ذكر إنعامه عليهم بالتولية إلى الكعبة، ذكر السبب الذي استحقوا به ذلك الإنعام، وهو إيمانهم بما حملوه أولاً، فقال: وما كان الله ليضيع إيمانكم الذي استحققتم به تبليغ محبتكم في التوجه إلى الكعبة، عن أبي القاسم البلخي. وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ رؤوف بهم لا يضيع عنده عمل عامل منهم. والرأفة أشد الرحمة. دل سبحانه بالرأفة والرحمة على أنه يوفر عليهم ما استحقّوه من الثواب، من غير تضييع لشيء منه. وقيل: أنه سبحانه دلّ بقوله ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، على أنه منعم على الناس بتحويل القبلة.

واستدل كثير من العلماء بهذه الآية على أنَّ إجماع الأُمة حجة من حيث إنه وصفهم بأنهم عدول، فإذا عدّلهم الله تعالى، لم يجز أن تكون شهادتهم مردودة والصحيح أنها لا تدلّ على ذلك، لأن ظاهر الآية أَنْ يكون كل واحد من الأُمة بهذه الصفة، ومعلوم خلاف ذلك. ومتى حملوا الآية على بعض الأُمة، لم يكونوا بأولى ممن يحملها على المعصومين والأئمة من آل الرسول (عليهم السلام).

وفي هذه الآية دلالة على جواز النسخ في الشريعة، بل على وقوعه، لأنه قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ فأخبر أنه تعالى هو الجاعل لتلك القبلة، وأنه هو الذي نقله عنها، وذلك هو النسخ.

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ

أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

النزول:

قال المفسرون: كانت الكعبة أَحبّ القبلتين إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم)، فقال لجبريل: وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها. فقال له جبريل (عليه السلام): إنما أنا عبد مثلك، وأنت كريم على ربك، فادع ربك وسله. ثم ارتفع جبريل، وجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) يديم النظر إلى السماء رجاء أنْ يأتيه جبريل بالذي سأل ربه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. فقال:

المعنى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ يا محمد ﴿وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ لانتظار الوحي في أمر القبلة. وقيل في سبب تقليب النبي وجهه في السماء قولان أحدهما: أنه كان وعد بتحويل القبلة عن بيت المقدس، فكان يفعل ذلك انتظاراً وتوقعاً للموعود، كما أنَّ من انتظر شيئاً فإنه يجعل بصره إلى الجهة التي يتوقع وروده منها والثاني: إنه كان يكره قبلة بيت المقدس، ويهوى قبلة الكعبة، وكان لا يسأل الله تعالى ذلك، لأنه لا يجوز للأنبياء أنْ يسألوا الله تعالى شيئاً من غير أنْ يؤذن لهم فيه، لأنه يجوز أن لا يكون فيه مصلحة، فلا يجابون إلى ذلك، فيكون فتنة لقومهم.

واختلف في سبب إرادته تحويل القبلة إلى الكعبة، فقيل: لأن الكعبة كانت قبلة أبيه إبراهيم (عليه السلام)، وقبلة آبائه، عن ابن عباس. وقيل: لأن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا، ويتبع قبلتنا، عن مجاهد. وقيل: إن اليهود قالوا: ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم، عن ابن زيد. وقيل: كانت العرب يحبّون الكعبة، ويعظّمونها غاية التعظيم، فكان في التوجه إليها استمالة لقلوبهم، ليكونوا أحرص على الصلاة إليها. وكان (صلى

الله عليه وآله وسلّم) حريصاً على استدعائهم إلى الدين، ويحتمل أنْ يكون إنما أحبّ ذلك لجميع هذه الوجوه، إذ لا تنافي بينها.

وقوله ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: فلنصرفنك إلى قبلة تريدها وتحبّها. وإنما أراد به محبة الطباع، لا أنه كان يسخط القبلة الأُولى. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: حوّل نفسك نحو المسجد الحرام، لأن وجه الشيء نفسه. وقيل: إنما ذكر الوجه لأن به يظهر التوجّه. وقال أبو علي الجبائي: أراد بالشطر النصف، فأمره الله تعالى بالتوجه إلى نصف المسجد الحرام، حتى يكون مقابل الكعبة. وهذا خطأ لأنه خلاف أقوال المفسرين.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي: أينما كنتم من الأرض، في برٍّ أو بحرٍ، أو سهلٍ أو جبل، فولوا وجوهكم نحوه. فالأول: خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) وأهل المدينة والثاني: خطاب لجميع أَهل الآفاق. ولو اقتصر على الأَول لجاز أنْ يظنّ أَنَّ ذلك قبلتهم حسب، فبين سبحانه أنه قبلة لجميع المصلين في مشارق الأرض ومغاربها.

وذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتابه عن ابن عباس أنه قال: البيت كله قبلة، وقبلة البيت الباب، والبيت قبلة أهل المسجد، والمسجد قبلة أهل الحرم، والحرم قبلة أهل الأرض كلها. وهذا موافق لما قاله أصحابنا أن الحرم قبلة من نأى عن الحرم من أهل الآفاق. وقوله ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أراد به علماء اليهود. وقيل: علماء اليهود والنصارى﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: يعلمون أن تحويل القبلة إلى الكعبة حق مأمور به من ربهم. وإنما علموا ذلك لأنه كان في بشارة الأنبياء لهم، أن يكون نبيّ من صفاته كذا وكذا، وكان في صفاته أنه يصلي إلى القبلتين.

وروي أنهم قالوا عند التحويل: ما أمرت بهذا يا محمد، وإنما هو شيء تبتدعه من تلقاء نفسك، مرة إلى هنا، ومرة إلى هنا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبيَّن أنهم يعلمون خلاف ما يقولون ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي:

ليس الله بغافل عما يعمل هؤلاء من كتمان صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) والمعاندة. ودلّ هذا على أنَّ المراد بالآية قوم معدودون، يجوز على مثلهم التواطؤ على الكذب، وعلى أنْ يظهروا خلاف ما يبطنون. فأما الجمع العظيم فلا يجوز عليهم التواطؤ على الكذب، ولا يتأتى فيهم كلهم أنْ يظهروا خلاف ما يعلمون.

وهذه الآية ناسخة لفرض التوجه إلى بيت المقدس. وقال ابن عباس: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا شأن القبلة. وقال قتادة: نسخت هذه الآية ما قبلها. وقال جعفر بن مبشر: هذا مما نسخ من السنة بالقرآن وهذا هو الأَقوى، لأنه ليس في القرآن ما يدل على التعبد بالتوجه إلى بيت المقدس. ومن قال إنها نسخت قوله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ هذه الآية عندنا مخصوصة بالنوافل في حال السفر، روي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبد الله (عليه السلام)، وليست بمنسوخة.

واختلف الناس في صلاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) إلى بيت المقدس فقال قوم: كان (عليه السلام) يصلي بمكة إلى الكعبة. فلما هاجر إلى المدينة، أمره الله تعالى أنْ يصلي إلى بيت المقدس، ثم أُعيد إلى الكعبة. وقال قوم: كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها، ولا يصلي في غير المكان الذي يمكن هذا فيه. وقال قوم: بل كان يصلي بمكة، وبعد قدومه المدينة إلى بيت المقدس، ولم يكن عليه أنْ يجعل الكعبة بينه وبينها، ثم أمره الله تعالى بالتوجه إلى الكعبة.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

المعنى:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ في الكلام معنى القسم أي: والله لئن أتيت الذين أعطوا الكتاب، يعني أهل العناد من علماء اليهود والنصارى، عن الزجاج والبلخي. وقيل: المعني به جميع أهل الكتاب، عن الحسن وأبي علي ﴿ بِكُلِّ ءَايَةٍ ﴾ أي: بكل حجة ودلالة ﴿ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ أي: لا يجتمعون على اتباع قبلتك على القول الثاني، وعلى القول الأول لا يؤمن منهم أحد لأن المعاند لا تنفعه الدلالة. وإنما تنفع الجاهل الذي لا يعلم.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ في معناه أربعة أقوال أحدها: أنه رفع لتجويز النسخ، وبيان أن هذه القبلة لا تنسخ وثانيها: أنه على وجه المقابلة لقوله ﴿ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ كما يقال ما هم بتاركي إنكار الحق، وما أنت بتارك الإعتراف به، فيكون الذي جر الكلام الثاني هو التقابل للكلام الأول. وثالثها: أن المراد ليس يمكنك استصلاحهم باتباع قبلتهم، لاختلاف وجهتهم لأن النصارى تتوجه إلى جهة المشرق، الموضع الذي ولد فيه عيسى (عليه السلام)، واليهود إلى بيت المقدس. فبيّن الله سبحانه أن إرضاء الفريقين محال ورابعها: إن المراد حَسْم أطماع أهل الكتاب من اليهود، إذ كانوا طمعوا في ذلك، وظنّوا أنه يرجع إلى الصلاة إلى بيت المقدس.

وقوله ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ في معناه قولان أحدهما: أنه لا تصير النصارى كلهم يهوداً، أو تصير اليهود كلهم نصارى أبداً، كما لا يتبع جميعهم الإسلام. وهذا من الإخبار بالغيب قاله الحسن والسدي الآخر: إن

معناه إسقاط اعتلالهم بأنه لا يجوز مخالفة أهل الكتاب، فيما ورثوه عن أنبياء الله، وأن بيت المقدس لم يزل كان قبلة الأنبياء، فهو أَولى بأن يكون قبلة أي: فكما جاز أن يخالف بين وجهتيهم للاستصلاح، جاز أَنْ يخالف بوجهة ثالثة في زمان آخر للاستصلاح. ويحتمل أيضاً أَنْ يجري الكلام على الظاهر، لأنه لم يثبت أَنَّ يهودياً تنصّر، ولا أنَّ نصرانياً تهوّد، فلا ضرورة بنا إلى العدول عن الظاهر إلى التأويل، وهذا قول القاضي.

وقوله و﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) وفيه أربعة أقوال أولها: إن المراد به غيره من أُمته، وإن كان الخطاب له، والمراد الدلالة على أنَّ الوعيد يستحق باتباع أهوائهم، وأنَّ اتباعهم ردة، عن الحسن والزجاج وثانيها: إنَّ المراد أن اتبعت أهواءهم في المداراة لهم، حرصاً أن يؤمنوا، إنك إذاً لمن الظالمين لنفسك، مع إعلامنا إياك أنهم لا يؤمنون، عن الجبائي وثالثها: إن معناه الدلالة على فساد مذاهبهم، وتبكيتهم بها، وأن من تبعهم كان ظالماً ورابعها: إنه على سبيل الزجر عن الركون إليهم ومقاربتهم، تقوية لنفسه، ومتبعي شريعته، ليستمروا على عداوتهم، عن القاضي.

﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي: من الآيات والوحي الذي هو طريق العلم. وقيل: من بعد ما علمت أنَّ الحق ما أنت عليه من القبلة والدين. ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وقد مضى معناه، وهو مثل قوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾. وفي هذه الآية دلالة على فساد قول من قال: إنه لا يصح الوعيد بشرط، وإنّ مَنْ علم الله تعالى أنه يؤمن، لا يستحق العقاب أصلاً، لأن الله تعالى علّق الوعيد بشرط يوجب أنه متى حصل الشرط يحصل استحقاق العقاب. وفيها دلالة على فساد قول من زعم أنَّ في المقدور لطفاً لو فعله الله تعالى بالكافر لآمن لا محالة، لقوله ﴿إن أتيتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾. فعلى قول من قال المراد به المعاند، لا ينفعه شيء من الآيات.

وعلى قول من قال المراد به جميع الكفار، فلا لطف لهم أيضاً يؤمنون عنده. فعلى الوجهين معاً يبطل قولهم. وفيها دلالة أيضاً على أنَّ جميع الكفار لا يؤمنون.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾

المعنى:

أخبر الله سبحانه بأنهم يعرفون النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) وصحة نبوَّته، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ﴾ أي: أعطيناهم ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وهم العلماء منهم ﴿ يَعۡرِفُونَهُۥ ﴾ أي: يعرفون محمداً وأنه حق﴿ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾ قيل: والضمير في يعرفونه يعود إلى العلم من قوله ﴿ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ يعني النبوة. وقيل: الضمير يعود إلى أمر القبلة أي: يعرفون أن أمر القبلة حق، عن ابن عباس.

فإن قيل: كيف قال يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وهم كانوا يعرفون أَبناءهم من جهة الحكم، ويعرفون أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) من جهة الحقيقة؟ قيل: إنه شبَّه المعرفة بالمعرفة، ولم يُشبِّه طريق المعرفة بطريق المعرفة، وكل واحدة من المعرفتين كالأُخرى، وإن اختلف الطريقان. ﴿ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ إنما خصّ الفريق منهم، لأن من أهل الكتاب مَنْ أسلم كعبد الله بن سلام وكعب الأَحبار وغيرهما.

﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ ﴾

المعنى:

هو ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهو ما آتاه الله من الوحي والكتاب والشرائع. ﴿ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ من الشاكين في الحق الذي تقدم إخبار الله تعالى به، وفي عناد من كتم النبوَّة وامتناعهم من الإجتماع على ما قامت به الحجة. وقيل: من الممترين في شيء يلزمك العلم به. وهذا أولى لأنه أعمّ. والخطاب وإن كان متوجهاً إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) فالمراد به الأمة، كقوله عز اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وأمثاله. وقيل: الخطاب له لأنه يجوز عليه ذلك لملازمته أمر الله سبحانه، ولو لم يكن هناك أمر، لم تصح الملازمة. وفي هذا دلالة على جواز ثبوت القدرة على خلاف المعلوم، خلافاً لقول المجبرة.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

المعنى:

هذا بيان لأمر القبلة أيضاً. وقوله ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ فيه أقوال أحدها: إن معناه لكل أهل ملة من اليهود والنصارى قبلة، عن مجاهد وأكثر المفسرين وثانيها: إن لكل نبيّ، وصاحب ملة، وجهة أي طريقة، وهي الإسلام، وإن اختلفت الأحكام كقوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ يعني شرائع الأنبياء عن الحسن وثالثها: إن لكل من المسلمين وأهل الكتاب قبلة يعني صلاتهم إلى بيت المقدس، وصلاتهم إلى الكعبة، عن قتادة. ورابعها: إن لكل قوم من المسلمين وجهة من كان منهم وراء الكعبة، أو قدامها أو عن يمينها أو عن شمالها وهو اختيار الجبائي.

﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أي: الله موليها إياهم. ومعنى توليته لهم إياها أنه أمرهم بالتوجه نحوها في صلاتهم إليها، ويدل على ذلك قوله ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾. وقيل: معناه لكلّ مولّي الوجهة وجهه أو نفسه إلا أنه استغنى

عن ذكر النفس والوجه وكل وإنْ كان مجموع المعنى، فهو موحد اللفظ، فجاء البناء على لفظه، فلذلك قال﴿ هُوَ ﴾ في الكناية عنه، وإن كان المراد به الجمع. والمعنى كل جماعة منهم يولونها وجوههم ويستقبلونها.

وقوله ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ معناه: سارعوا إلى الخيرات، عن الربيع. والخيرات: هي الطاعات لله تعالى. وقيل: معناه بادروا إلى القبول من الله عز وجل فيما يأمركم به، مبادرة من يطلب السبق إليه، عن الزجاج. وقيل: معناه تنافسوا فيما رغبتم فيه من الخير، فلكل عندي ثوابه، عن ابن عباس. وقوله ﴿ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ ﴾ أي: حيثما متّم من بلاد الله سبحانه، يأت بكم الله إلى المحشر يوم القيامة. وروي في أخبار أهل البيت (عليهم السلام) أنّ المراد به أصحاب المهدي في آخر الزمان. قال الرضا (عليه السلام): وذلك والله لو قام قائمنا يجمع الله إليه جميع شيعتنا من جميع البلدان. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ أي: هو قادر على جمعكم وحشركم، وعلى كل شيء.

﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ ﴾

المعنى:

﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ ﴾ من البلاد ﴿ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ ﴾ أي فاستقبل بوجهك تلقاء المسجد الحرام. وقيل في تكراره وجوه أحدها إنه لما كان فرضاً، نسخ ما قبله، كان من مواضع التأكيد والتبيين، لينصرف الخلق إلى الحال الثانية من الحال الأُولى على يقين وثانيها: إنه مقدم لما يأتي بعده، ويتصل به، فأشبه الاسم الذي تكرر، ليخبر عنه بأخبار كثيرة، كما يقال: زيد كريم، زيد عالم، زيد فاضل، وما أشبه ذلك مما يذكر، لتعلق الفائدة به. وثالثها: إنه في الأول بيان لحال الحضر، وفي الثاني بيان لحال

السفر. وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ معناه: وإن التوجه إلى الكعبة الحق المأمور به من ربك. ويحتمل أن يراد بالحق الثابت الذي لا يزول بنسخ، كما يوصف القديم سبحانه بأنه الحق الثابت الذي لا يزول.﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ معناه هنا التهديد، كما يقول الملك لعبيده: ليس يخفى عليّ ما أنتم عليه فيه. ومثله قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

المعنى:

قد مضى الكلام في معنى أَول الآية. وقيل في تكراره وجوه أحدها: أنه لاختلاف المعنى، وإن اتفق اللفظ، لأن المراد بالأول ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ منصرفاً عن التوجه إلى بيت المقدس ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. والمراد بالثاني: أين ما كنت من البلاد، فتوجه نحوه من كل جهات الكعبة وسائر الأقطار وثانيها: إنه من مواضع التأكيد لما جرى من النسخ ليثبت في القلوب وثالثها: أنه لاختلاف المواطن والأوقات التي تحتاج إلى هذا المعنى فيها. وقوله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ قيل فيه وجوه أولها: إن معناه لأن لا يكون لأهل الكتاب عليكم حجة، إذا لم تصلّوا نحو المسجد الحرام، بأن يقولوا: ليس هذا هو النبيّ المبشر به إذ ذاك نبيّ يصلي بالقبلتين وثانيها: إن معناه لا تعدلوا عما أَمركم الله به من التوجه إلى الكعبة، فتكون لهم عليكم حجة، بأن يقولوا: لو كنتم تعلمون أنه من عند الله، لما عدلتم عنه عن الجبائي وثالثها: ما قاله أبو روق: إن حجة اليهود أَنهم كانوا قد عرفوا أَنَّ النبي المبعوث في آخر الزمان قبلته الكعبة. فلما رأوا محمداً يصلي إلى

الصخرة، احتجوا بذلك، فصرفت قبلته إلى الكعبة، لئلا يكون لهم عليه حجة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ يريد إلا الظالمين الذين يكتمون ما عرفوا من أَنه يحوّل إلى الكعبة. وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً. وقد مضى ذكر ما قيل فيه من الأقوال في الإعراب. وإنما اختلف العلماء في وجه الإستثناء لأن الظالم لا يكون له حجة، لكنه يورد ما هو في اعتقاده حجة، وإن كانت باطلة، كما قال سبحانهُ حجتهم داحضة. وقيل: المراد بالذين ظلموا قريش واليهود، فأَما قريش فقالوا: قد علم أَننا على هدى، فرجع إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا. وأما اليهود فقالوا: لم ينصرف عن قبلتنا عن علم، وإنما فعله برأيه وزعم أنه قد أُمر به. وقيل: المراد بالذين ظلموا العموم، يعني ظلموكم بالمقاتلة، وقلة الاستماع.

وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ ي لما ذكرهم بالظلم والخصومة والمحاجة، طيب نفوس المؤمنين، فقال: لا تخافوهم، ولا تلتفتوا إلى ما يكون منهم، فإن عاقبة السوء عليهم، ولا حجة لأحد منهم عليكم ولا يد. وقيل: لا تخشوهم في استقبال الكعبة، واخشوا عقابي في ترك استقبالها، فإني أَحفظكم من كيدهم.

وقوله ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ عطف على قوله ﴿لِئَلَّا﴾، وتقديره لئلا يكون لأحد عليكم حجة، ولأتم نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم (عليه السلام). بيّن سبحانه أنه حوّل القبلة لهذين الغرضين زوال القالة وتمام النعمة. وروي عن ابن عباس أنه قال: ولأتم نعمتي عليكم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فأنصركم على أَعدائكم. وأورثكم أَرضهم وديارهم وأموالهم. وأَما في الآخرة فجنتي ورحمتي. وروي عن علي (عليه السلام) قال: النعم ستة: الإسلام والقرآن ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) والستر والعافية والغنى عما في أيدي الناس. ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا، ولعل من الله واجب، عن الحسن وجماعة. وقيل: لتهتدوا إلى ثوابها. وقيل: إلى التمسك بها.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ ﴾

المعنى:

قوله ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا ﴾ التشبيه فيه على القول الأَول معناه: إن النعمة في أمر القبلة، كالنعمة بالرسالة، لأن الله تعالى لطف لعباده بها على ما يعلم من المصلحة ومحمود العاقبة. وأما على القول الثاني فمعناه: إن في بعثة الرسول منكم إليكم نعمة عليكم لأنه يحصل لكم به عز الرسالة. فكما أنعمت عليكم بهذه النعمة العظيمة، فاذكروني واشكروا لي واعبدوني أنعم عليكم بالجزاء والثواب. والخطاب للعرب على قول جميع المفسرين. وقوله: ﴿ رَسُولٗا ﴾ يعني محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ بالنسب لأنه من العرب، ووجه النعمة عليهم بكونه من العرب، ما حصل لهم به من الشرف والذكر، وإن العرب لم تكن لتتبع رسولاً يبعث إليهم من غيرهم، مع نخوتهم وعزتهم في نفوسهم، فكون الرسول منهم يكون أدعى لهم إلى الإيمان به واتباعه. وقوله ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ أراد بها القرآن ﴿ وَيُزَكِّيكُمۡ ﴾ ويعرضكم لما تكونون به أزكياء من الأمر بطاعة الله، واتباع مرضاته، ويحتمل أن يكون معناه ينسبكم إلى أنكم أزكياء بشهادته لكم بذلك ليعرفكم الناس به. ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ الكتاب القرآن، والحكمة هي القرآن أيضاً، جمع بين الصفتين لاختلاف فائدتهما، كما يقال الله العالم بالأمور كلها، القادر عليها. وقيل: أراد بالكتاب القرآن، وبالحكمة الوحي من السنة، وما لا يعلم إلّا من جهته من الأحكام. وقوله ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ أي: ما لا سبيل لكم إلى علمه إلا من جهة السمع، فذكرهم الله بالنعمة فيه، ويكون التعليم لما عليه دليل من جهة العقل، تابعاً للنعمة

فيه، ولا سيما إذا وقع موقع اللطف.

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾

المعنى:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ قيل: معناه اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي، عن سعيد بن جبير، بيانه قوله سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ آل عمران: ١٣٢ وقيل: اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي، عن ابن عباس، وبيانه قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ العنكبوت: ٦٩ وقيل: اذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة، عن ابن كيسان بيانه: ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾. وقيل: اذكروني على ظهر الأرض، أذكركم في بطنها. وقد جاء في الدعاء: «اذكروني عند البلاء إذا نسيني الناسون من الورى». وقيل: اذكروني في الدنيا، أذكركم في العقبى. وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء، أذكركم في الشدة والبلاء. وبيانه قوله سبحانه: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ﴾ الصافات: ١٤٢-١٤٤. وفي الخبر: «تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة». وقيل: اذكروني بالدعاء، أذكركم بالإجابة، بيانه قوله: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ غافر: ٦٠.

وروي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم): «إنَّ الملك ينزل الصحيفة من أول النهار وأول الليل، يكتب فيها عمل ابن آدم فَأَملوا في أَولها خيراً وفي آخرها خيراً، فإن الله يغفر لكم ما بين ذلك إن شاء الله، فإن الله يقول: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ وقال الربيع في هذه الآية: إن الله عز وجل ذاكر مَنْ ذكره، وزائد مَنْ شكره، ومعذب مَنْ كفره. وقوله: ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا ﴾ أي: اشكروا نعمتي وأظهروها واعترفوا بها. ﴿ وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ ولا تستروا نعمتي بالجحود يعني بالنعمة قوله: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ ﴾ الآية.

القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أعلم الله تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة: ما ولاّهم. و(سيقول) بمعنى قال؛ جعل المستقبل موضع الماضي، دلالة على استدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول. وخصّ بقوله: ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن السّفه يكون في جمادات وحيوانات. والمراد من (السفهاء) جميع من قال: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾. والسفهاء جمع، واحده سفيه، وهو الخفيف العقل؛ من قولهم: ثَوْبٌ سَفيه إذا كان خفيف النّسج، وقد تقدم. والنساء سفائه. وقال المؤرّخ: السّفيه البهّات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم. والمراد بالسهفاء هنا اليهود الذين بالمدينة؛ قاله مجاهد. السّدي: المنافقون. الزجاج: كفار قريش لما أنكروا تحويل القِبلة قالوا: قد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم. وقالت اليهود: قد التبس عليه أمره وتحيّر. وقال المنافقون: ما ولاّهم عن قبلتهم! واستهزأوا بالمسلمين. و﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾ يعني عَدَلهم وصرَفهم.

الثانية: روى الأئمة واللفظ لمالك عن ابن عمر قال: بينما الناس بقبَاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: رسول الله (ص) قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها؛ وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، وخرّج البخاري عن البراء أن النبي (ص) صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وإنه صلى – أو – صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم؛ فخرج

رجل ممن كان صلى مع النبي (ص) فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله، لقد صلّيت مع النبي (ص) قِبل مكة؛ فداروا كما هم قِبل البيت. وكان الذي مات على القِبلة قبل أن تُحوّل قِبل البيت رجال قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ البقرة: ١٤٣ ؛ ففي هذه الرواية صلاة العصر، وفي رواية مالك صلاة الصبح. وقيل: نزل ذلك على النبي (ص) في مسجد بني سلِمَة وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول في الصلاة؛ فسُمّي ذلك المسجد مسجد القِبلتين.

الثالثة: واختلف في وقت تحويل القبلة بعد قدومه المدينة؛ فقيل: حُوّلت بعد ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً؛ كما في البخاري. وخرّجه الدارقطني عن البَراء أيضاً، قال: صلّينا مع رسول الله (ص) بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً نحو بيت المَقدس، ثم علم الله هوى نبيّه فنزلت: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ البقرة: ١٤٤ الآية. ففي هذه الرواية ستة عشر شهراً من غير شك. وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أن تحويلها كان قبل غزوة بدر بشهرين. قال إبراهيم بن إسحاق: وذلك في رجب من سنة اثنتين. وقال أبو حاتم البُستي: صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً وثلاثة أسام سواء؛ وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان.

الرابعة: واختلف العلماء أيضاً في كيفية استقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال؛ فقال الحسن: كان ذلك منه عن رأي واجتهاد، وقاله عِكرمة وأبو العالية. الثاني: أنه كان مخيّراً بينه وبين الكعبة، فاختار القُدس طمعاً في إيمان اليهود واستمالتهم؛ قاله الطبري. وقال الزجاج: امتحاناً للمشركين لأنهم أَلِفُوا الكعبة. الثالث: وهو الذي عليه الجمهور: ابن عباس وغيره، وجب عليه استقباله بأمر الله تعالى ووَحْيه لا محالة، ثم نسخ الله ذلك وأمره الله أن

يستقبل بصلاته الكعبة؛ واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ البقرة: ١٤٣.

الخامسة: واختلفوا أيضاً حين فرضت عليه الصلاة أولاً بمكة؛ هل كانت إلى بيت المقدس أو إلى مكة، على قولين؛ فقالت طائفة: إلى بيت المقدس وبالمدينة سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله تعالى إلى الكعبة؛ قاله ابن عباس. وقال آخرون: أول ما افترضت الصلاة عليه إلى الكعبة، ولم يزل يصلي إليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل؛ فلما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، على الخلاف، ثم صرفه الله إلى الكعبة. قال أبو عمر: وهذا أصح القولين عندي. قال غيره: وذلك أن النبي (ص) لما قدم المدينة أراد أن يستألف اليهود فتوجه إلى قبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم؛ فلما تبين عنادهم وأيِس منهم أحب أن يحول إلى الكعبة فكان ينظر إلى السماء؛ وكانت محبته إلى الكعبة لأنها قِبلة إبراهيم؛ عن ابن عباس. وقيل: لأنها كانت أدعى للعرب إلى الإسلام، وقيل: مخالفة لليهود؛ عن مجاهد. وروي عن أبي العالية الرباحي أنه قال: كانت مسجد صالح عليه السلام وقِبلته إلى الكعبة؛ قال: وكان موسى عليه السلام يصلي إلى الصخرة نحو الكعبة، وهي قِبلة الأنبياء كلهم؛ صلوات الله عليهم أجمعين.

السادسة: في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى وكتابه ناسخاً ومنسوخاً، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذّ، كما تقدم. وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نُسخ من القرآن، وأنها نُسخت مرتين، على أحد القولين المذكورين في المسألة قبل.

السابعة: ودلت أيضاً على جواز نسخ السنة بالقرآن؛ وذلك أن النبي (ص) صلى نحو بيت المقدس؛ وليس في ذلك قرآن، فلم يكن الحُكم إلا من جهة السنّة ثم نسخ ذلك بالقرآن؛ وعلى هذا يكون (كنتَ عليها) بمعنى أنت عليها.

الثامنة: وفيها دليل على جواز القطع بخبر الواحد؛ وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعاً به من الشريعة عندهم، ثم أن أهل قُباء لما أتاهم الآتي وأخبرهم أن القبلة قد حُولت إلى المسجد الحرام قَبِلوا قوله واستداروا نحو الكعبة؛ فتركوا المتواتر بخبر الواحد وهو مظنون.

وقد اختلفت العلماء في جوازه عقلاً ووقوعه؛ فقال أبو حاتم: والمختار جواز ذلك عقلاً لو تعبّد الشرع به، ووقوعاً في زمن رسول الله (ص) بدليل قصة قُباء، وبدليل أنه كان عليه السلام يُنفذ آحاد الوُلاة إلى الأطراف وكانوا يبلغون الناسخ والمنسوخ جميعاً. ولكن ذلك ممنوع بعد وفاته (ص)، بدليل الإجماع من الصحابة على أن القرآن والمتواتر المعلوم لا يُرفع بخبر الواحد، فلا ذاهب إلى تجويزه من السلف والخَلف.

التاسعة: وفيها دليل على أن من لم يبلغه الناسخ أنه متعبد بالحكم الأول؛ خلافاً لمن قال: إن لاحكم الأول يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به، والأول أصح؛ لأن أهل قُباء لم يزالوا يصلون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتي فأخبرهم بالناسخ فمالوا نحو الكعبة. فالناسخ إذاً حصل في الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العلم به؛ لأن الناسخ خطاب، ولا يكون خطاباً في حق من لم يبلغه.

العاشرة: وفيها دليل على قبول خبر الواحد، وهو مُجمَع عليه من السلف معلوم بالتواتر من عادة النبي (ص) في توجيهه وُلاته ورسله آحاداً للآفاق؛ ليعلّموا الناس دينهم فيبلّغوهم سُنّة رسولهم (ص) من الأوامر والنواهي.

الحادية عشرة: وفيها دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله (ص) شيئاً بعد شيء وفي حال بعد حال، على حسب الحاجة إليه، حتى أكمل الله دينه؛ كما قال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ المائدة: ٣ .

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ ﴾ أقامه حجة؛ أي له ملك المشارق والمغارب وما بينهما؛ فله أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قِبلة إبراهيم؛ والله تعالى أعلم. والصراط. الطريق. والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً؛ أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. والوسط: العَدْل؛ واصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها. وروى الترمذي عن أبي سعيد الخُدري عن النبي (ص) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾قال: (عَـدْلاً). قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي التنزيل: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ القلم: ٢٨ أي أعدلهم وخيرهم.

ووسط الوادي: خير موضع فيه وأكثره كَلأ وماء. ولما كان الوسط مجانباً للغلوّ والتقصير كان محموداً؛ أي هذه الأمة لم تَغْل غُلوّ النصارى في أنبيائهم، ولا قصّروا تقصير اليهود في أنبيائهم. وفي الحديث: «خير الأمور أوسطها». وفيه عن عليّ رضي الله عنه: عليكم بالنّمط الأوسط، فإليه ينزل العالي، وإليه يرتفع النازل. وفلان من أوسط قومه، وإنه لواسطة قومه، ووسط قومه؛ أي من خيارهم وأهل الحسب منهم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ نصب بلام كي؛ أي لأن تكونوا. ﴿شُهَدَآءَ﴾ خبر كان. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي في المحشر للأنبياء على أممهم؛ كما ثبت في

صحيح البخاري عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله (ص): «يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لبيك وسعدَيك يا رب فيقول: هل بلغت فيقول: نعم فيقال لأمته هل بلّغكم فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: مَن يشهد لك فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيد فذلك قوله عز وجل وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً...» وذكر هذا الحديث مطوّلاً ابن المبارك بمعناه، وفيه: «فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يُدركنا فيقول لهم الرب سبحانه كيف تشهدون على مَن لم تُدركوا فيقولون ربّنا بعثت إلينا رسولاً وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا فيقول الرب صدقوا فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ - والوسط العدل - ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾». قال ابن أنعم: فبلغني أنه يشهد يومئذ أمة محمد عليه السلام، إلا مَن كان في قلبه حنّة على أخيه. وقالت طائفة: معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت؛ كما ثبت في صحيح مسلم عن أنس عن النبي (ص).

الثالثة: قال علماؤنا: أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه، فجعلناه أولاً مكاناً وإن كنا آخراً زماناً؛ كما قال عليه السلام: «نحن الآخرون الأولون». وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلاً.

الرابعة: وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحُكم به؛ لأنهم إذا كانوا عدولاً شهدوا على الناس. فكلّ عصر شهيد على من بعده؛ فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين، وقول التابعين على مَن بعدهم. وإذا جعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم. ولا معنى لقول من قالك أريد به جميع الأمة؛ لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليه إلى قيام الساعة. وبيان هذا في كتاب

أصول الفقه.

قوله تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ قيل: معناه بأعمالكم يوم القيامة. وقيل: «عليكم» بمعنى لكم؛ أي يشهد لكم بالإيمان. وقيل: أي يشهد عليكم بالتبليغ لكم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾ قيلك المراد بالقِبلة هنا القِبلة الأولى؛ لقوله عزّ وجل ﴿ كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾ . وقيل: الثانية؛ فتكون الكاف زائدة، أي أنت الآن عليها، كما تقدم، وكما قال: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١١٠ أي أنتم، في قول بعضهم، وسيأتي.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: معنى ﴿ لِنَعۡلَمَ ﴾ لنرى. العرب تضع العلم مكان الرؤية، والرؤية مكان العلم؛ كقوله تعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴾ الفيل: ١ بمعنى ألم تعلم. وقيل: المعنى إلا لتعلموا أننا نعلم؛ فإن المنافقين كانوا في شك من علم الله تعالى بالأشياء قبل كونها. وقيل: المعنى لنميّز أهل اليقين من أهل الشك؛ حكاه ابن فُورَك، وذكره الطبري عن ابن عباس. وقيل: المعنى إلا ليعلم النبي وأتباعه، وأخبر تعالى بذلك عن نفسه؛ كما يقال: فعل الأمير كذا، وإنما فعله أتباعه؛ ذكره المَهدَوي وهو جيّد. وقيل: معناه ليعلم محمد؛ وأضاف علمه إلى نفسه تعالى تخصيصاً وتفضيلاً؛

والأول أظهر، وأن معناه علم المعاينة الذي يوجب الجزاء، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، علم ما يكون قبل أن يكون، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه لا يختلف بل يتعلق بالكل تعلقاً واحداً.

﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾ يعني ممن يرتد عن دينه؛ لأن القبلة لما حولت ارتد من المسلمين قوم ونافق قوم؛ ولهذا قال: (وإن كانت لكبيرة) أي تحويلها؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. والتقدير في العربية: وإن كانت التحويلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ وقال الأخفش: أي وإن كانت القِبلة أو التحويلة أو التّولية لكبيرة. ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي خلق الهدى الذي هو الإيمان في قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ المجادلة: ٢٢ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس؛ كما ثبت في البخاري من حديث البَراء بن عازب، على ما تقدم. وخرّج الترمذي عن ابن عباس قال: لما وُجّه النبي (ص) إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ الآية، قال: هذا حديث حسن صحيح. فسمّى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقوة وعمل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أشد من الرحمة. وقال أبو عمرو بن العلاء: الرأفة أكثر من الرحمة؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قال العلماء: هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ومعنى (تقلب وجهك): تحول وجهك إلى السماء؛ قاله الطبري. الزجاج: تقلب عينيك في النظر إلى السماء؛ والمعنى متقارب. وخص السماء بالذكر إذ هي مختصة بتعظيم ما أضيف إليها ويعود منها كالمطر والرحمة والوحْي. ومعنى ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ تحبها.

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ﴾ أمر ﴿وَجْهَكَ شَطْرَ﴾ أي ناحية ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ يعني الكعبة، ولا خلاف في هذا. قيل: حيال البيت كله؛ عن ابن عباس. وقال ابن عمر: حيال المِيزاب من الكعبة؛ قال ابن عطية. والميزاب: هو قبلة المدينة وأهل الشام، وهناك قبلة أهل الأندلس.

قلت: قد روى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله (ص) قال: «البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قِبلةٌ لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي».

الثانية: قوله تعالى: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ الشطر له محامل: يكون الناحية والجهة، كما في هذه الآية، وهو ظرف مكان؛ كما تقول: تلقاءه وجهته.

وشطر الشيء: نِصفه؛ ومنه الحديث: «الطهور شطر الإيمان».

الثالثة: لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قِبلة في كل أفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فُرض عليه استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى، ذكره أبو عمر. وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها، فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها. ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيماناً واحتساباً؛ فإنه يروى أن النظر إلى الكعبة عبادة؛ قاله عطاء ومجاهد.

الرابعة: واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة؛ فمنهم من قال بالأول. قال ابن العربي: وهو ضعيف؛ لأنه تكليف لما لا يصل إليه. ومنهم من قال بالجهة؛ وهو الصحيح.

الخامسة: في هذه الآية واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن

المصلي حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده. وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي والحسن بن حي: يستحب أن يكون نظره إلى موضع سجوده.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني تحويل القِبلة من بيت المَقدس. فإن قيل: كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم؟ قيل عنه جوابان: أحدهما: أنهم لما علموا من كتابهم أن محمداً (ص) نبيّ علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا به. الثاني: أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بضعهم؛ فصاروا عالمين بجواز القبلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ لأنهم كفروا وقد تبين لهم الحق، وليس تنفعهم الآيات؛ أي العلامات.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ لفظ خبر ويتضمن الأمر؛ أي فلا تركن إلى شيء من ذلك. ثم أخبر تعالى أن اليهود ليست متبعة قِبلة النصارى ولا النصارى متبعة قبلة اليهود؛ عن المسدى وابن زيد. فهذا إعلام باختلافهم وتدابرهم وضلالهم. وقال قوم: المعنى وما من اتبعك ممن أسلم منهم بمتبع قبلة من لم يُسلم، ولا من لم يُسلم قبلة من أسلم. والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخطاب للنبي (ص)، والمراد أمته ممن يجوز أن يتبع هواه فيصير باتباعه ظالماً، وليس يجوز أن يفعل النبي (ص) ما يكون به ظالماً؛ فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبي (ص) وقطعنا أن ذلك لا

يكون منه، وخُوطب النبي (ص) تعظيماً للأمر ولأنه المنزل عليه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ في موضع رفع.

أي يعرفون نبوّته وصدق رسالته؛ والضمير عائد على محمد (ص)؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. وقيل: (يعرفون) تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة أنه حق؛ قاله ابن عباس وابن جريج والربيع وقتادة أيضاً. وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمرّ عليه من زمنه بُرهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ يعني محمداً (ص)؛ قاله مجاهد وقتادة وخُصيف. وقيل: استقبال الكعبة، على ما ذكرنا آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ظاهر في صحة الكفر عناداً؛ ومثله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ النمل: ١٤ .

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني استقبال الكعبة، لا ما أخبرك به اليهود من قبلتهم. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قرأ (الحق) منصوباً بـ(يعلمون) أي يعلمون الحق.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي من الشاكين. والخطاب للنبي (ص) والمراد أُمته.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

فيه أربع مسائل:

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ الوجهة وزنها فعلة من المواجهة. والوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد، والمراد القبلة؛ أي إنهم لا يتبعون قبلتك وأنت لا تتبع قبلتهم، ولكل وجهة إما بحق وإما بهوى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (هو) عائد على لفظ كل لا على معناه.

والمعنى: ولكل صاحب ملة قبلة، صاحب القبلة مولّيها وجهه، على لفظ كل؛ وهو قول الربيع وعطاء وابن عباس. وقال علي بن سليمان: ﴿ مُوَلِّيهَا ﴾ أي متولّيها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أي إلى الخيرات، فحذف الحرف؛ أي بادروا ما أمركم الله عز وجل من استقبال البيت الحرام؛ وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآي. والمعنى المراد المبادرة بالصلاة أول وقتها، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل: هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها؛ لأن موقع التحويل كان صعباً في نفوسهم جداً؛ فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخف عليهم وتسكن نفوسهم إليه. وقيل: أراد بالأول: وضلّ وجهك شطر الكعبة؛ أي عاينها إذا صلّيت تلقاءها. ثم قال: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾. ثم قال: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ يعني وجوب الاستقبال في الأسفار؛ فكان هذا أمراً بالتوجه إلى

الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض.

قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ قال مجاهد: هم مشركو العرب. وحجّتهم قولهم: راجعت قبلتنا؛ وقد أجيبوا عن هذا بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾. وقيل: معنى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ لئلا يقولوا لكم: قد أُمرتم باستقبال الكعبة ولستم تَرَوْنها؛ فلما قال عز وجل: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ زال هذا.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ يريد الناس: ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ الخشية أصلها طمأنينة في القلب تبعث على التوقّي. والخوف: فزع القلب تخف له الأعضاء، ولخفة الأعضاء به سُمّي خوفاً. ومعنى الآية التحقير لكل من سوى الله تعالى، والأمر باطراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على (لئلا يكون) أي ولأن أُتمّ؛ قاله الأخفش. ولأتمّ نعمتي عليكم عرّفتكم قبلتي؛ قاله الزجاج. وإتمام النعمة الهداية إلى القِبلة، وقيل: دخول الجنة. قال سعيد بن جُبير: ولم تتم نعمة الله على عبد حتى يُدخله الجنة. و﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ الكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف؛ المعنى: ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا؛ قاله الفراء. قال ابن عطية: وهذا أحسن الأقوال؛ أي ولأتم نعمتي عليكم في بيان سنّة إبراهيم عليه السلام مثل ما أرسلنا. وقيل: المعنى ولعلكم تهتدون اهتداء مثل ما أرسلنا. وقيل: روي عن علي رضي الله عنه واختاره الزجاج. أي كما أرسلنا فيكم رسولاً تعرفونه بالصدق فاذكروني بالتوحيد والتصديق به. والوقف على ﴿تَهْتَدُونَ﴾ على هذا القول جائز.

قلت: وهذا اختيار الترمذي الحكيم في كتابه؛ أي كما فعلت بكم هذا من المنن التي عددتها عليكم فاذكروني بالشكر أذكركم بالمزيد؛ لأن في ذكركم ذلك شكراً لي، وقد وعدتكم بالمزيد على الشكر، وهو قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧ .

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أمرّ وجوابه، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم. وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له. وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي؛ غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم.

ومعنى الآية: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة؛ قاله سعيد بن جبير. وقال أيضاً: الذكر طاعة الله؛ فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وروي عن النبي (ص): من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقلّ صلاته وصومه وصنيعه للخير ومَن عصى الله فقد نسي الله وإن كثّر صلاته وصومه وصنيعه للخير؛ ذكره أبو عبدالله محمد بن خُوَيز منداد في (أحكام القرآن) له. وقال أبو عثمان النهدي: إني لأعلم الساعة التي يذكرنا الله فيها؛ قيل له: ومن أين تعلمها؟ قال يقول الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. وقال السدي: ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله عز وجل، لا يذكره مؤمن إلا ذكره الله برحمته، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب. وسُئل أبو عثمان فقيل له: نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة؟ فقال: احمدوا الله تعالى على أن زيّن جارحة من جوارحكم بطاعته. وقال ذو النّون المصري رحمه الله: من ذكر الله تعالى ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله. والأحاديث في ضل الذكر وثوابه كثيرة خرّجها الأئمة. روى ابن

ماجه عن عبدالله بن بُسر أن أعرابياً قال لرسول الله (ص) إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأنبئني منها بشيء أتشبّث به؛ قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل».

قوله تعالى: ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ والشكر معرفة الإحسان والتحدث به؛ وأصله في اللغة الظهور؛ وقد تقدم. فشكر العبدالله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له؛ إلا أن شكر العبد نطق باللسان وإقرار بالقلب بإنعام الرب مع الطاعات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ نهيٌ، ولذلك حُذفت منه نون الجماعة، وهذه نون المتكلم.

الشيرازي:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾

هذه الآية وآيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الإسلامي، كان له آثاره الكبيرة في المجتمع آنذاك.

رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) صلّى صوب (بيت المقدس) بأمر ربّه مدّة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة في مكة، وبضعة أشهر في المدينة بعد الهجرة. ثم تغيّرت القبلة، وأمر الله المسلمين أن يصلّوا تجاه (الكعبة).

واختلف المفسرون في المدّة التي صلّى خلالها المسلمون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، فذكروا مُدداً مختلفة تتراوح بين سبعة أشهر وسبعة عشر شهراً.

كانت الجماعة المسلمة تتعرض خلال كل هذه المدّة (مدة صلاة المسلمين تجاه بيت المقدس) إلى لوم اليهود وتقريعهم، وكان اليهود يقولون عن المسلمين: إن هؤلاء غير مستقلين لأنّهم يصلون تجاه قبلتنا، وهذا دليل

أننا على حقّ.

كانت هذه الأقوال تؤلم الرّسول وصحبه، فالأمر الإلهي يوجب أن يصلوا تجاه بيت المقدس، واليهود لا ينفكّون يرشقون المسلمين بوابل تهمهم وتقريعهم. وبلغ الأمر أن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم بدأ يقلب وجهه في السماء انتظاراً للوحي.

واستمر الإنتظار مدّة، حتى نزل الوحي يأمر بتغيير القبلة، كان الرّسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مسجد «بني سالم» يصلي الظهر، فما إن أتمّ ركعتين حتى أمر جبرائيل أن يأخذ بعضد الرّسول ويدير وجهه تجاه الكعبة.

لم يكفّ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الإعتراضات: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ﴾.

بدأوا يرددون : لو كانت القبلة الأُولى هي الصحيحة فَلِمَ هذا التغيير؟ وإن كانت الثانية صحيحة فلماذا صلى المسلمون أكثر من ثلاثة عشر عاماً تجاه بيت المقدس؟!

والله سبحانه يجيب على هذا الإعتراض، فأمر رسوله أن ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

فليس لمكان قداسة ذاتية، إنما يكتسب قداسته بإذن الله، وكل مكان ملك لله، والمهم هو الطاعة والإستسلام لربّ العالمين.

تغيير القبلة في الواقع مرحلة من مراحل الإختبار الإلهي، وكل مرحلة خطوة على الصراط المستقيم نحو الهداية الإلهية.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ

ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

هذه الآية تشير إلى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أوّلاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي كما جعلنا القبلة وسطاً، كذلك جعلناكم أمّة في حالة اعتدال، لا يشوبها إفراط ولا تفريط في كل جوانب حياتها.

أما سبب كون قبلة المسلمين قبلة وسطاً، فلأن النصارى ـ الذين يعيش معظمهم في غرب الكرة الأرضية ـ يولون وجوههم صوب الشرق تقريباً حين يتجهون إلى قبلتهم في بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح. واليهود ـ الذين يتواجدون غالباً في الشامات وبابل ـ يتجهون نحو الغرب تقريباً حين يقفون تجاه بيت المقدس.

أما «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين في المدينة تجاه الجنوب، وبين المشرق والمغرب، وفي خط وسط.

وهذا ما يُفهم من عبارة «وَكَذلِك»، وإن كان للمفسرين آراء أُخرى في هذه العبارة لا تخلو من مناقشة.

القرآن يؤكد أن المنهج الإسلامي في كل أبعاده ـ لا في بعد القبلة فقط ـ يقوم على أساس التوازن والإعتدال.

والهدف من ذلك ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.

و«شهادة» الأُمّة المسلمة على النّاس، و«شهادة» النّبي على المسلمين، قد تكون إشارة إلى الأُسوة والقُدْوَة، لأن الشاهد يُنتخب من بين أزكى النّاس وأمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآني أن الأُمّة المسلمة نموذجيّة بما عندها من عقيدة ومنهج، كما أن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فرد نموذجيّ بين أبناء الأُمّة.

الأُمّة المسلمة بعملها وبتطبيقها المنهج الإسلامي تشهد أن الإنسان

بمقدوره أن يكون رجل دين ورجل دنيا ... أن يكون إنساناً يعيش في خضم الأحداث الإجتماعية وفق معايير روحية ومعنوية. الأُمّة المسلمة بمعتقداتها ومناهجها تشهد بعدم وجود أي تناقض بين الدين والعلم، بل إن كلا منهما يخدم الآخر.

ثم تشير الآية إلى واحد آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

الآية لم تقل: يتبعك، بل قالت: ﴿يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ إشارة إلى أن هذا الإتباع إنما هو تسليم لأمر الله، وكل اعتراض إنما هو عصيان وتمرّد على الله، ولا يصدر ذلك إلاّ عن مشرك جاهلي.

وعبارة ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ تعني في الأصل الرجوع على مؤخر الرجل، وتعني هنا الإنتكاس والتراجع.

ثم تضيف الآية: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

لولا الهداية الإلهية، لما وجدت في نفس الإنسان روح التسليم المطلق أمام أوامر الله. المهم أن يكون الإنسان المسلم مستسلماً إلى درجة لا يحسّ معها بثقل مثل هذه الأوامر، بل يشعر بلذتها وحلاوتها.

وأمام وسوسة الأعداء المضللين والأصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون في صحة ما سبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فأوامر الله مثل وصفات الطبيب لكل مرحلة من مراحل العلاج نسخة خاصة، وكلها شافية وافية تضمن سعادة الإنسان وسلامته، والعمل بأجمعها صحيح لا غبار عليه.

١ ـ أسرار تغيير القبلة:

تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة، أولئك الذين قالوا إن الأحكام ينبغي أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون

عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبلة الصحيحة هي الكعبة، فلماذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء، وإن كانت بيت المقدس فلِمَ هذا التغيير؟!

وأعداء الإسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم ولإعلامهم المضّاد. قالوا إن تغيير القبلة تمّ بدافع عنصري، وزعموا أن النّبي اتجه أوّلاً إلى قبلة الأنبياء السابقين، ثم عاد إلى قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته! وقالوا: إن محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أراد استعطاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبلة له، ولما يئس منهم استبدل الكعبة بها.

واضح مدى القلق والاضطراب الذي تتركه هذه الوساوس على مجتمع لم يتغلغل نور العلم والإيمان في كل زواياه، ولم يتخلص بعد تماماً من رواسب الشرك والعصبية.

لذلك تصرّح الآية أعلاه أن تغيير القبلة إختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين.

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة ما يلي:

لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بيتاً لأصنام المشركين، فقد أُمر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت المقدس، ليتحقّق الإنفصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين.

وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، حدث الإنفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذٍ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأعرق مركز للأنبياء.

ومن الطبيعي أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوي لقوميتهم، وأن يستثقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبلتهم الأُولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحوّل وُضعوا في بوتقة الإختبار، لتخليصهم ممّا علّق

في نفوسهم من آثار الشرك، ولتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه.

إن الله سبحانه ليس له مكان ومحل ـ كما ذكرنا ـ والقبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين ولإحياء ذكريات خط التوحيد، وتغييرها لا يغيّر شيئاً، المهم هو الإِستسلام الكامل أمام الله، وكسر أوثان التعصب واللجاج والأنانية في النفوس.

٢ ـ الأمّة الوسط:

«الوسط» ما توسط بين شيئين، وبمعنى الجميل والشريف، والمعنيان يعودان ظاهراً إلى حقيقة واحدة لأن الجمال والشرف فيما اعتدل وابتعد عن الإفراط والتفريط.

ما أجمل التعبير القرآني عن الأُمّة المسلمة ... الأُمّة الوسط.

الوسط: المعتدلة في «العقيدة» لا تسلك طريق «الغلو» ولا طريق «التقصير والشرك»، لا تنحو منحى «الجبر» ولا «التفويض»، ولا تؤمن «بالتشبيه» في صفات الله ولا «بالتعطيل».

معتدلة في «القيم المادية والمعنوية» لا تغطّ في عالم المادة وتنسى المعنويات، ولا تغرق في المعنويات وتتناسى الماديات. ليست كمعظم اليهود لا يفهمون سوى المادة، وليست كرهبان النصارى يتركون الدنيا تماماً.

معتدلة في «الجانب العلمي» ... لا ترفض الحقائق العلمية، ولا تقبل كل نعرة ترتفع باسم العلم.

معتدلة في «الرّوابط الإجتماعية» لا تضرب حولها حصاراً يعزلها عن العالم، ولا تفقد استقلالها وتذوب في هذه الكتلة أو تلك، كما نرى الذائبين في الشرق والغرب اليوم!

معتدلة في «الجانب الأخلاقي» ... في عباداتها ... في تفكيرها ... وفي جميع أبعاد حياتها.

المسلم الحقيقي لا يمكن إطلاقاً أن يكون إنساناً ذا بعد واحد، بل هو إنسان ذو أبعاد مختلفة ... مفكر، مؤمن، عادل، مجاهد، مكافح، شجاع، عطوف، واعٍ، فعّال، ذو سماح.

عبارة الأُمّة الوسط توضّح من جانب مسألة شهادة الأُمّة الإسلامية، لأن من يقف على خطّ الوسط يستطيع أن يشهد كل الخطوط الإِنحرافية المتجهة نحو اليمين واليسار.

ومن جانب آخر تحمل العبارة دليلها وتقول: «اِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ لأَنَّكُمْ معتدلون وأنكم أمة وَسَط».

٣ـ الأُمّة الشاهدة:

لو اجتمعت الصفات التي ذكرناها للأُمّة الوسط في أُمّة، فهذه الأُمّة دون شك رائدة للحق، وشاهدة على الحقيقة، لأن مناهجها تشكل الميزان والمعيار لتمييز الحق عن الباطل.

ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام قولهم: «نَحْنُ الأُمّة الْوُسْطى، وَنَحْنُ شُهَدَاءُ الله عَلى خَلْقِه وَحجَجُهُ فِي أَرْضِه ... نَحْنُ الشُّهَداءُ عَلَى النَّاسِ ... إلَيْنَا يَرْجِعُ الغَالي وَبِنَا يَرجِعُ الْمُقَصّرُ» مثل هذه الروايات ـ كما ذكرنا ـ لا تحدد المفهوم الواسع للآية، بل تبين المصداق الأمثل للأُمّة الوسط، وتعطي نموذجاً متكاملاً لها.

٤ـ علم اللّه:

عبارة ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ وأمثالها من التعبيرات القرآنية، لا تعني أن الله لم يكن يعلم شيئاً، ثم علم به بعد ذلك، بل تعني تحقّق هذه الواقعيات.

بعبارة أوضح، الله سبحانه يعلم منذ الأزل بكل الحوادث والموجودات، وإن ظهرت بالتدريج على مسرح الوجود. فحدوث الموجودات والأحداث لا يزيد الله علماً، بل إن هذا الحدوث تحقّق لما كان في علم الله. وهذا يشبه

علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم إلى بناء عملي. (علم الله يختلف دون شك عن علم البشر اختلافاً كبيراً كما ذكرنا ذلك في بحث صفات الله، وإنما ذكرنا هذا المثال للتوضيح).

عبارة ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ توضح حقيقة الصعوبة في مخالفة العادة الجارية، وفي التخلص من سيطرة العواطف غير الصحيحة، إلاّ على الذين آمنوا بالله حقّاً، واستسلموا لأوامره.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ذكرنا أن بيت المقدس كان القبلة الأولى المؤقتة للمسلمين. والرّسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) كان ينتظر الأمر الإلهي بتغيير القبلة، خاصة وأن اليهود استغلّوا مسألة اشتراك المسلمين معهم في القبلة، ليوجّهوا سهام إعلامهم المضاد للمجموعة المسلمة، مردّدين أن المسلمين لا استقلال لهم، وأنهم لا يعرفون معنى القبلة وإنما اقتبسوه منّا، وأن قبولهم قبلتنا يعني اعترافهم بديننا! وأمثال هذه الأقاويل.

الآية تشير إلى هذه المسألة وتقول: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾.

ذكرت الرواية ـ كما أشرنا من قبل ـ أن هذا الأمر الإلهي نزل في لحظة حساسة ملفتة للأنظار، حين كان الرّسول والمسلمون يؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبرائيل بذراع الرّسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) وأدار وجهه نحو الكعبة. وتذكر الرواية أن صفوف المسلمين تغيّرت على أثر ذلك، وترك النساء مكانهنّ للرجال وبالعكس. (كان اتجاه بيت المقدس نحو الشمال تقريباً، بينما كان اتجاه الكعبة نحو الجنوب).

من المفيد أن نذكر أنّ تغيير القبلة من علامات نبي الإسلام المذكورة في الكتب السابقة. فقد كان أهل الكتاب على علم بأن النّبي المبعوث «يصلّي إلى القبلتين».

لذلك تضيف الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

أضف إلى ذلك أن دلائل نبوّة رسول الإسلام، تحرره من التأثر بعادات بيئته الاجتماعية، وتركه الكعبة التي كانت موضع تقديس العرب، واتجاهه نحو قبلة أقلية محدودة.

ثم تقول الآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء في كتبهم بشأن تغيير قبلة نبي الإسلام، ويستغلون هذه الحادثة لإثارة ضجة بوجه المسلمين، بدل أن يتخذوها دليلاً على صدق دعوى النّبي، سيلاقون جزاء أعمالهم، واللّه ليس بغافل عن أعمالهم ونياتهم.

١ ـ انتظار صعب!

ويستفاد من هذه الآية أن النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان مرتبطاً بالكعبة ارتباطاً خاصاً، ومنتظراً لأمر تغيير القبلة، ولعلنا نستطيع أن نتلمس سبب ذلك في ارتباط النّبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) بإبراهيم عليه السّلام، أضف إلى ذلك أن الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأنه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) كان يعلم بوقوع هذا التغيير، وكان يترقب حدوثه.

وهنا تبرز ظاهرة الاستسلام المطلق للرسول، حيث لم يتردّد على لسانه طلب بهذا الشأن، بل كان يقلب طرفه في السماء منتظراً بتلهّف نزول الوحي.

وتعبير «السماء» في الآية قد يشير إلى انتظاره هبوط «جبرائيل» من الأعلى، وإلّا فالله لا مكان له، وهكذا وحيه المرسل.

٢ ـ معنى الشطر

ويثير الإلتفات أن الآية لم تأمر المسلمين أن يصلّوا تجاه الكعبة، بل «شطر المسجد الحرام».

لعل ذلك يعود إلى صعوبة بل تعذّر محاذاة الكعبة على المصلين البعيدين عن الكعبة. لذلك ذكر المسجد الحرام بدل الكعبة لأنه أوسع، ثم كلمة «شطر» تعني السمت والجانب، وبذلك كان الاتجاه شطر المسجد الحرام عملاً ميسوراً للجميع، وخاصة لصفوف الجماعة الطويلة التي يزيد طولها غالباً على طول الكعبة.

بديهي أن المحاذاة الدقيقة للكعبة ـ وحتى للمسجد الحرام ـ عمل صعب على المصلين البعيدين، لكن الوقوف شطره يخلو من كل صعوبة.

٣ـ خطاب عام

كل خطابات القرآن هي دون شك ـ شاملة لكل المسلمين ـ وإن اتجهت إلى النّبي (صلّى اللّه عليه واله وسلّم) (اللهم إلّا في مواضع دل الدليل على أنّها خاصّة بالنّبي)، من هنا يطرح سؤال بشأن سبب اتّجاه الآية الّتي نحن بصددها في الخطاب إلى النّبي تارة تأمره أن يصلي شطر المسجد الحرام، وتارة اخرى إلى عامة المسلمين.

هذا التكرار قد يعود إلى أنّ تغيير القبلة مسألة مثيرة حساسة، ومن الممكن أن تؤدي الضجة التي تثيرها هذه المسألة إلى اضطراب بين المسلمين، وقد يتذرّع بعض في وسط هذه الضجة بأن الخطاب «فولّ وجهك» موجّه إلى النّبي خاصة، فلا يصلي تجاه الكعبة. لذلك خاطبت الآية الرّسول مرة وعامة المسلمين مرّة أخرى لتؤكد أن هذا التغيير غير خاص بالرّسول، بل يشمل عامّة المسلمين أيضاً.

٤ـ هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضى النّبي؟

عبارة «قِبْلَةً تَرْضَاهَا» قد توهم أن هذا التغيير تم إرضاء للنبي (صلّى اللّه عليه واله وسلّم)، ويزول هذا التوهم لو علمنا أن بيت المقدس كان

قبلة مؤقتة، وأن النّبي كان ينتظر القبلة النهائية، وبصدور أمر التغيير وضع حد لطعن اليهود من جهة، وتوفرت أرضية استمالة أهل الحجاز المرتبطين ارتباطاً خاصاً بالكعبة نحو الإسلام من جهة أخرى، كما أن إعلان بيت المقدس كقبلة أولى أزال عن الإسلام الطابع القومي، وأسقط اعتبار الأصنام المتواجدة في الكعبة.

٥ ـ الكعبة مركز دائرة كبرى

ولو نظر شخص من خارج الكرة الأرضية إلى المصلين المسلمين لرأى دوائر متعدّدة بعضها داخل بعض وتضيق بالتدريج لتصل إلى المركز الأصلي المتمثل بالكعبة. وهذه الصورة توضح محورية ومركزية بيت الله الحرام. وهذه ظاهرة متميزة في الإسلام دون سواه من الأديان.

جدير بالذكر أن ضرورة اتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعثاً على تطور علم الهيئة وعلم الجغرافيا والفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الإسلامية الأولى، لأن معرفة جهة القبلة في مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسّرة من دون معرفة بهذه العلوم.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾

مرّ بنا في تفسير الآية السابقة أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شبهة حول النّبي، بل إنه من دلائل صحة دعواه، فأهل الكتاب قد قرأوا عن صلاة النّبي الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق.

والإنسان، حين لا يواجه المسائل بقناعات مسبقة، يكون مستعداً للتفاهم ولتصحيح تصوراته بالدليل والمنطق، أو عن طريق إراءة المعجزة.

أمّا حينما يكون قد كوّن له رأياً مسبقاً قاطعاً، وخاصّة حين يكون مثل

هذا الفرد جاهلاً متعصباً، فلا يمكن تغيير رأيه بأي ثمن.

لذلك تقول الآية: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾.

فلا تتعب نفسك إذن، لأن هؤلاء يأبون الاستسلام للحق، ولا توجد فيهم روح طلب الحقيقة.

كل الأنبياء واجهوا مثل هؤلاء الأفراد، وهم إمّا أثرياء متنفّذون، أو علماء منحرفون، أو جاهلون متعصبون.

ثم تضيف الآية: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾.

أي إن هؤلاء لا يستطيعون مهما افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرّة أُخرى قبلة المسلمين، فهذه هي القبلة الثابتة النهائية.

وهذا التعبير القاطع الحاسم أحد سبل الوقوف بوجه الضجيج المفتعل، ومن الضروري في مثل هذه الظروف أن يعلن الإنسان المسلم أمام الأعداء كلمته صريحة قوية، مؤكداً أنه لا ينثني أمام هذه الإنفعالات.

ثم تقول الآية: ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾.

لا النصارى بتابعين قبلة اليهود، ولا اليهود بتابعين قبلة النصارى.

ولمزيد من التأكيد والحسم ينذر القرآن النّبي ويقول: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وفي القرآن يكثر مثل هذا اللون من الخطاب التهديدي للنبي بأسلوب القضية الشرطية، والهدف من ذلك ثلاثة أشياء:

الأوّل: أن يعلم الجميع عدم وجود أي تمييز بين النّاس في إطار القوانين الإلهية، وحتى الأنبياء مشمولون بهذه القوانين. ومن هنا فلو صدر عن النّبي ـ على الفرض المحال ـ انحراف، فسيشمله العقاب الإلهي، مع استحالة صدور ذلك عن النّبي (بعبارة أُخرى القضية الشرطية لا تدل على تحقق الشرط).

الثّاني: أن يتنبّه النّاس إلى واقعهم، فإذا كان ذلك شأن النّبي، فمن الأولى أن يكونوا هم أيضاً واعين لمسؤولياتهم، وأن لا يستسلموا إطلاقاً لميول

الأعداء وضجاتهم المفتعلة.

الثّالث: أن يتّضح عدم قدرة النّبي على تغيير أحكام الله، وعدم إمكان الطلب إليه أن يغير حكماً من الأحكام، فهو عبد أيضاً خاضع لأمر الله تعالى.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾.

استمراراً لحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب ولجاجهم، تقول الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾.

إنهم يعرفون النّبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) واسمه وعلاماته من خلال كتبهم الدينية، ﴿ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾.

وهناك طبعاً فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات والعلامات في نبي الإسلام، مثل عبد اللّه بن سلام وهو من علماء اليهود، ونقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به مني بابني».

هذه الآية تميط اللثام في الواقع عن حقيقة هامّة، هي إن صفات نبي الإسلام الجسمية والروحية وخصائصه كانت بقدر من الوضوح في الكتب السماوية السابقة، بحيث ترسم الصورة الكاملة في أذهان المطلعين على هذه الكتب.

وهل من الممكن أن تصرح الآية بوجود اسم النّبي وعلاماته في كتب أهل الكتاب إذا لم تكن بالفعل موجودة عندهم؟! ألا يدل عدم معارضة علماء اليهود لهذا التصريح، بل اعتراف بعضهم به واستسلامهم للحق، أن اسم النّبي الخاتم وصفاته كانت معروفة لديهم!؟

هذه الآيات ـ إذن ـ دليل على صدق دعوة الرّسول وصحّة نبوته.

ثم تؤكد الآية ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن أحكام الإسلام بشكل عام: ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾- أي المترددين أي المترددين.

وبهذه العبارة تثبّت الآية فؤاد النّبي، وتنهاه عن أي ترديد أمام افتراءات الأعداء بشأن تغيير القبلة وغيرها، وإن جنّد هؤلاء الأعداء كل طاقاتهم للمحاربة.

المخاطب في الآية وإن كان شخص النّبي صلّى اللّه عليه واله وسلّم، ولكن الهدف هو تربية البشرية كما ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أن النّبي المتصل بالوحي الإلهي لا يعتريه تردد، لأن الوحي بالنسبة له ذو جانب حسّي وعين اليقين.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾.

هذه الآية الكريمة ترد على الضجة التي أثارها اليهود حول تغيير القبلة وتقول: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾.

كان للأنبياء على مرّ التاريخ وجهات عديدة يولونها، وليست القبلة كأصول الدين لا تقبل التغيير، ولا أمراً تكوينياً لا يمكن مخالفته، فلا تطيلوا الحديث في أمر القبلة، وبدل ذلك ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾، لأن معيار القيمة الوجودية للإنسان هي أعمال البرّ والخير.

مثل هذا المعنى تضمنته الآية ١٧٧ من هذه السّورة: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾.

إن كنتم تريدون اختبار الإسلام أو المسلمين، فاختبروهم بهذه الأمور لا بمسألة تغيير القبلة.

ثم تتغير لهجة الآية إلى نوع من التحذير والتهديد لأولئك المفترين، والتشجيع للمحسنين فتقول: ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ في تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كل جزاء عمله.

لا يتساوى المفترون والمشاغبون المخربون مع المحسنين المؤمنين، ولا

بدّ من يوم ينال كل فريق جزاءه.

وقد يخال بعض أن جمع النّاس لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات التراب المتناثرة لترتدي ثانية حلّة الحياة؟! لذلك تجيب الآية بالقول: إِنَّ ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

هذه العبارة الأخيرة في الآية بمثابة الدليل على العبارة السابقة: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام في تفسير ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أن المقصود بهم أصحاب المهدي عليه السّلام.

من ذلك ما ورد في «روضة الكافي» عن «الإمام الباقر» عليه السّلام أنه تلا الفقرة المذكورة من الآية ثم قال: «يعني «أَصْحَابَ القَائم الثَلاثَمائَة وَالبضْعَة عَشَرَ رَجُلاً، وَهُمْ وَاللهِ الأُمّةُ المَعْدُودةُ، قَالَ: يَجْتَمِعُونَ وَاللهِ في سَاعَةَ وَاحِدَة قَزَعَ كَقَزَعِ الخَرِيف».

وروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السّلام أيضاً: «وَذَلِكَ واللهِ أَنْ لَوْ قامَ قائِمُنَا يَجْمَعُ اللّه إِلَيْهِ جَميعَ شِيعَتِنَا من جَميعِ البُلْدَانِ».

هذا التّفسير للآية دون شك يتحدث عن «بطن» الآية، والأحاديث ذكرت أن لكلام الله ظاهراً لعامة النّاس، وباطناً لخاصّتهم.

بعبارة أُخرى: هذه الروايات تشير إلى حقيقة، هي إن الله القادر على أن يجمع النّاس من ذرات التراب المتناثرة في يوم القيامة، لقادر على أن يجمع أصحاب المهدي في ساعة بسهولة، من أجل انقداح الشرارة الأُولى للثورة العالمية الرّامية إلى إقامة حكم الله على ظهر الأرض، وإزالة الظلم والعدوان عن وجهها.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾.

هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة ونتائجها.

الآية الأُولى تأمر النّبي عليه السلام وتقول: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾... من أية مدينة، وأية ديار ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

ولمزيد من التأكيد تقول الآية: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾

وتنتهي الآية بتهديد المتآمرين: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

هذه التأكيدات المتوالية في الآية وفي الآية التالية تبيّن أن مسألة تغيير القبلة كانت صعبة وثقيلة على مجموعة من المسلمين حديثي العهد بالإسلام، كما كانت ذريعة بيد أعداء الإسلام اللجوجين لبثّ سمومهم.

مثل هذه الحالة تتطلب دائماً موقفاً قاطعاً حاسماً ينهي كل شك وريبة، من هنا توالت التأكيدات القرآنية القارعة لتبعث العزم واليقين في نفوس الأتباع، وتعمق اليأس والخيبة بين الأعداء. وهذا أُسلوب اتبعه القرآن في مواقف عديدة.

إضافة إلى ما سبق، فالتكرار في هذه الآيات يتضمن أيضاً أحكاماً جديدة. على سبيل المثال، الآيات السابقة وضحت حكم القبلة في المدينة التي يسكنها المسلمون. وهذه الآية والآية التالية أوضحت الحكم لدى السفر والخروج من المدن والديار.

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام في أي مكان: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

صحيح أن هذه العبارة القرآنية تخاطب النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لكنها تقصد دون شك مخاطبة عامّة المسلمين، ولمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين وتقول: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.

ثم تشير الآية إلى ثلاث مسائل هامّة:

١ ـ إلجام المعارضين ـ تقول الآية: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾.

قبل تغيير القبلة كانت ألسنة المعارضين من اليهود والمشركين تقذف المسلمين بالتهم والحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النّبي الموعود يصلي إلى قبلتين، وهذه العلامة غير متوفرة في محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، والمشركون يعترضون على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلين: كيف ترك محمّد الكعبة وهو يدعي أنّه بعث لإحياء ملّة إبراهيم. هذا التغيير أنهى كل هذه الإعتراضات.

لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم، وأن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾.

فهؤلاء لا يستقيمون على طريق، حتّى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلاة اتهموكم بالذيلية وعدم الأصالة، وحين عدلتم إلى الكعبة وصفوكم بعدم الثبات!

هؤلاء المفترون ظالمون حقاً ... ظالمون لأنفسهم، وظالمون لمن يقطعون عليه طريق الهداية.

٢ ـ حين وصف الآية هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفاً في نفوس البعض لذلك قالت الآية:﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾.

وهذه الفقرة من الآية تطرح أصلاً عاماً أساسياً من أُصول التربية التوحيدية الإِسلامية، هو عدم الخوف من أي شيء سوى الله (أو بعبارة أصح الخوف فقط من معصية الله)، وإذا ترسخ هذا المبدأ التربوي في نفوس الجماعة المسلمة فلن تفشل ولن تنهزم قط.

أما المتظاهرون بالإسلام فهم يخافون من «الشرق» تارة، ومن «الغرب» تارة أُخرى، ومن «المنافقين الداخليين» ومن «الأعداء الخارجيين» ومن كل شيء سوى الله. وهؤلاء دائماً أذلاء ضعفاء مهزومون.

٣ ـ وآخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو إتمام النعمة: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

تغيير القبلة كان في الواقع نوعاً من التربية والتكامل والنعمة للمسلمين كي يتعرفوا على الإنضباط الإِسلامي ويتخلصوا من التقليد والتعصب، فالله سبحانه أمر المسلمين في البداية أن يصلوا تجاه بيت المقدس كي تنعزل صفوف المسلمين ـ كما قلنا ـ عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبة. وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية صدر الأمر بالصلاة نحو الكعبة ... نحو أقدم بيت توحيدي، وبذلك تحقق اجتياز مرحلة من مراحل تكامل المجتمع الإسلامي.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أن أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على النّاس وهدايتهم، والآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة إلى أن تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التي أنعمها الله عليكم، بل منَّ عليكم بنعم كثيرة ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ ﴾.

وكلمة «منكم» قد تعني أن الرّسول بشرٌ مثلكم، والإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربّي البشر وقدوتهم وأن يتحسس آمالهم وآلامهم، وتلك نعمة كبرى أن يكون الرّسول بشراً «مِنْكُمْ».

وقد يكون المعنى أنه من بني قومكم ووطنكم، فالعرب الجاهليون قوم متعصبون عنصريون، وما كان بالإمكان أن يخضعوا لنبي من غير قومهم، كما قال سبحانه في الآيتين: (١٩٨ و١٩٩) من سورة الشعراء:﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴾.

كان هذا طبعاً للمرحلة الأُولى من الدعوة، وفي المراحل التالية أُلغيت مسائل القومية والوطن (الجغرافي)، وربّى الإسلام أبناءه على أساس مبادئ «العالميّة» كوطن، و«الإِنسانية» كقومية.

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن إلى أربع نِعَم عادت على المسلمين

ببركة هذه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم:

١ ـ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾، ويتلو من التلاوة، أي من إتيان الشيء متوالياً، والإتيان بالعبارات المتوالية (وبنظام صحيح) هي التلاوة.

النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إذن يقرأ عليكم آيات الله متتالية، لتنفذ إلى قلوبكم، ولإعداد أنفسكم إلى التعليم والتربية.

٢ ـ ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

و«التّزكية» هو الزيادة والإنماء، أي إنّ النّبي بفضل آيات الله يزيدكم كمالاً مادياً ومعنوياً، وينمّي أرواحكم، ويربّي في أنفسكم الطهر والفضيلة، ويزيل ألوان الرذائل التي كانت تغمر مجتمعكم في الجاهلية.

٣ ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

التعليم طبعاً مقدم بشكل طبيعي على التربية، ولكن القرآن ـ كما ذكرنا ـ يقدم التربية في مواضع تأكيداً على أنها هي الهدف النهائي.

الفرق بين «الكتاب» و«الحكمة» قد يكون بلحاظ أن الكتاب إشارة إلى آيات القرآن والوحي الإلهي النازل على النّبي بشكل إعجازي، والحكمة حديث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعاليمه المسمّاة بالسنة.

وقد يكون الكتاب إشارة إلى أصل التعاليم الإسلامية، والحكمة إشارة إلى أسرارها وعللها ونتائجها.

ومن المفسرين من احتمل أن «الحكمة» إشارة إلى الحالة والملكة الحاصلة من تعاليم الكتاب. وبامتلاكها يستطيع الفرد أن يضع الأُمور في نصابها.

صاحب «المنار» يرفض أن يكون معنى الحكمة «السنة»، ويستدل على رفضه بالآية الكريمة ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

لكننا نعتقد أن الحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب والسنّة معاً، أمّا استعمالها القرآني مقابل «الكتاب» (كما في هذه الآية) فيشير إلى أنها

«السنّة» لا غير.

٤ ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب والحكمة. لكن القرآن عاد فأكد ذلك في فقرة مستقلة تنبيهاً على أن الأنبياء هم الذين بيّنوا لكم المعارف والعلوم، ولولاهم لخفي كثير من ذلك عليكم. فهم لم يكونوا قادة أخلاقيين واجتماعيين فحسب، بل كانوا هداة طريق العلم والمعرفة، وبدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الإنسانية.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهية في الآية، تذكر الآية التالية أن هذه النعم تستدعي الشكر، وبالاستفادة الصحيحة من هذه النعم يؤدي الإنسان حقّ شكر الباري تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

واضح أن عبارة ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ لا تشير إلى معنى عاطفي بين الله وعباده كما يقول النّاس لبعضهم ذلك. بل تشير إلى أصل تربوي وتكويني، أي اذكروني ... اذكروا الذات المقدسة التي هي معدن الخيرات والحسنات والمبرات ولتطهر أرواحكم وأنفسكم، وتكون قابلة لشمول الرحمة الإلهية. ذكركم لهذه الذات المقدسة يجعل تحرككم أكثر إخلاصاً ومضاء وقوّة واتحاداً.

كذلك المقصود من «الشكر وعدم الكفران» ليس تحريك اللسان بعبارات الشكر، بل المقصود استثمار كل نعمة في محلها وعلى طريق نفس الهدف الذي خلقت له، كي يؤدي ذلك إلى زيادة الرحمة الإلهية.

وللمفسرين آراء متنوعة في تفسي هذه الآية، وفي بيان كيفية ذكر العبد وذكر الله.

١ ـ أُذكروني «بالإطاعة» كي أذكركم «برحمتي». والشاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.آل عمران؛ ١٣٢.

٢ ـ أذكروني «بالدعاء» كي أذكركم «بالإجابة»، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠.

٣ ـ أُذكروني «بالثناء والطاعة» لأذكركم «بالثناء والنعمة».

٤ ـ أُذكروني في «الدنيا» لأذكركم في «الآخرة».

٥ ـ أُذكروني في «الخلوات» كي أذكركم في «الجمع».

٦ ـ أُذكروني «لدى وفور النعمة» لأذكركم في «الصعاب».

٧ ـ أُذكروني «بالعبادة» لأذكركم «بالعون»، والشاهد على ذلك قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٨ ـ أُذكروني «بالمجاهدة» لأذكركم «بالهداية»، الشاهد على ذلك قوله سبحانه في الآية ٦٩ من سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

٩ ـ أُذكروني «بالصدق والإخلاص» لأذكركم «بالخلاص ومزيداً للإختصاص».

١٠ ـ أُذكروني «بالربوبية» لأذكركم بالرحمة. دليل ذلك مجموع آيات سورة الحمد.

كل واحدة من التفاسير المذكورة هي طبعاً مظهر من مظاهر المعنى الواسع للآية. ولا تقتصر هذه المظاهر على ما سبق فيشمل المعنى أيضاً: أُذكروني «بالشكر» لأذكركم «بزيادة النعمة» كما ورد في قوله سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم:٧.

كل ذكر لله ـ كما قلنا ـ له أثر تربوي في وجود الإنسان إذ يجعل روحه مستعدة لنزول بركات جديدة متناسبة مع طريقة الذكر.

من المؤكد أن ذكر الله ليس بتحريك اللسان فقط، بل اللسان ترجمان القلب، الهدف هو التوجه بكل الوجود إلى ذات البارئ سبحانه، ذلك التوجّه الذي يصون الإنسان من الذنب ويدعوه إلى الطاعة.

ومن هنا ورد في أحاديث عديدة عن المعصومين: أن ذكر الله ليس باللسان فحسب، ومن ذلك حديث عن الرّسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يوصي به علياً قائلاً: «ثَلاَثٌ لاَ تُطِيقُها هذِهِ الأُمَّةُ: المُوَاساةُ لِلأخِ في مَالِهِ،

وَإِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِه، وَذِكْرُ الله عَلَى كل حَالٍ، وَلَيْسَ هُوَ سُبْحَانَ الله والحَمْدِ لله ولا إِلَهَ إلاَّ اللهُ واللهُ أَكْبَرُ، وَلَكِنْ إِذَا وَرَدَ على مَا يَحْرُمُ عَلَيْه خَافَ اللهَ تَعَالى عِنْدَهُ وَتَرَكَهُ».

على أية حال، لا ينبغي أن نغفل عن الروعة في هذا الاقتران... الله سبحانه على عظمته وجلاله وجبروته يقرن ذكره بذكر عبده الضعيف المحدود الصغير، إنه تكريم ما بعده تكريم للإنسان.

الرازي:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ ﴾

أما قوله ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ففيه قولان. الأول: وهو اختيار القفال: أن هذا اللفظ وإن كان للمستقبل ظاهراً لكنه قد يستعمل في الماضي أيضاً، كالرجل يعمل عملاً فيطعن فيه بعض أعدائه فيقول: أنا أعلم أنهم سيطعنون علي فيما فعلت، ومجاز هذا أن يكون القول فيما يكرر ويعاد، فإذا ذكروه مرة فسيذكرونه بعد ذلك مرة أخرى، فصح على هذا التأويل أن يقال: سيقول السفهاء من الناس ذلك، وقد وردت الأخبار أنهم لما قالوا ذلك نزلت الآية. القول الثاني: إن الله تعالى أخبر عنهم قبل أن ذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه وفيه فوائد. أحدها: أنه عليه الصلاة والسلام إذا أخبر عن ذلك قبل وقوعه، كان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً. وثانيها: أنه تعالى إذا أخبر عن ذلك أولاً ثم سمعه منهم، فإنه يكون تأذية من هذا الكلام أقل مما إذا سمعه منهم أولاً. وثالثها: أن الله تعالى إذا أسمعه ذلك أولاً ثم ذكر جوابه معه فحين يسمعه النبي عليه الصلاة والسلام منهم يكون الجواب حاضراً، فكان ذلك أولى مما إذا سمعه ولا يكون الجواب حاضراً، وأما السفه في أصل اللغة فقد شرحناه في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ البقرة: ١٣ وبالجملة فإن

من لا يميز بين ما له وعليه، ويعدل عن طريق منافعه إلى ما يضره، يوصف بالخفة والسفه، ولا شك أن الخطأ في باب الدين أعظم مضرة منه في باب الدنيا فإذا كان العادل عن الرأي الواضح في أمر دنياه يعد سفيهاً، فمن يكون كذلك في أمر دينه كان أولى بهذا الاسم فلا كافر إلا وهو سفيه فهذا اللفظ يمكن حمله على اليهود، وعلى المشركين وعلى المنافقين، وعلى جملتهم، ولقد ذهب إلى كل واحد من هذه الوجوه قوم من المفسرين. فأولها: قال ابن عباس ومجاهد: هم اليهود، وذلك لأنهم كانوا يأنسون بموافقة الرسول لهم في القبلة، وكانوا يظنون أن موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يصير موافقاً لهم بالكلية، فلما تحول عن تلك القبلة استوحشوا من ذلك واغتموا وقالوا: قد عاد إلى طريقة آبائه، واشتاق إلى دينهم، ولو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنه الرسول المنتظر المبشر به في التوراة، فقالوا: ما حكى الله عنهم في هذه الآية. وثانيها: قال ابن عباس والبراء بن عازب والحسن والأصم، إنهم مشركو العرب، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان متوجهاً إلى بيت المقدس حين كان بمكة، والمشركون كانوا يتأذون منه بسبب ذلك فلما جاء إلى المدينة وتحول إلى الكعبة قالوا: أبى إلا الرجوع إلى موافقتنا، ولو ثبت عليه لكان أولى به. وثالثها: أنهم المنافقون وهو قول السدي، وهؤلاء إنما ذكروا ذلك استهزاء من حيث لا يتميز بعض الجهات عن بعض بخاصية معقولة تقتضي تحويل القبلة إليها، فكان هذا التحويل مجرد العبث والعمل بالرأي والشهوة، وإنما حملنا لفظ السفهاء على المنافقين لأن هذا الاسم مختص بهم، قال الله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٣ . ورابعها: أنه يدخل فيه الكل لأن لفظ السفهاء لفظ عموم دخل فيه الألف واللام، وقد بينا صلاحيته لكل الكفار بحسب الدليل العقلي والنص أيضاً يدل عليه وهو قوله ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ البقرة: ١٣٠ فوجب أن يتناول الكل.

أما قوله تعالى: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ولّاه عنه صرفه عنه وولى إليه بخلاف ولى عنه ومنه قوله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ الأنفال: ١٦ وقوله: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾ استفهام على جهة الاستهزاء والتعجب.

المسألة الثانية: في هذا التولي وجهان. الأول: وهو المشهور المجمع عليه عند المفسرين: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة من بيت المقدس عاب الكفار المسلمين فقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فالضمير في قوله: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾ للرسول والمؤمنين والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس، واختلفت الروايات في أنه عليه الصلاة والسلام متى حول القبلة بعد ذهابه إلى المدينة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه بعد تسعة أشهر أو عشرة أشهر، وعن معاذ بعد ثلاثة عشر شهراً وعن قتادة بعد ستة عشر شهراً وعن ابن عباس والبراء بن عازب بعد سبعة عشر شهراً، وهذا القول أثبت عندنا من سائر الأقوال وعن بعضهم ثمانية عشر شهراً من مقدمه. قال الواقدي: صرفت القبلة يوم الاثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً، وقال آخرون: بل سنتان. الوجه الثاني: قول أبي مسلم وهو أنه لما صح الخبر بأن الله تعالى حوله عن بيت المقدس إلى الكعبة وجب القول به، ولولا ذلك لاحتمل لفظ الآية أن يراد بقوله كانوا عليها، أي السفهاء كانوا عليها فإنهم كانوا لا يعرفون إلا قبلة اليهود وقبلة النصارى، فالأولى إلى المغرب والثانية إلى المشرق، وما جرت عادتهم بالصلاة حتى يتوجهوا إلى شيء من الجهات فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجهاً نحو الكعبة كان ذلك عندهم مستنكراً، فقالوا: كيف يتوجه أحد إلى هاتين الجهتين المعروفتين، فقال الله تعالى راداً عليهم ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ واعلم أن أبا مسلم صدق فإنه لولا الروايات الظاهرة لكان هذا القول محتملاً والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال القفال: القبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان،

وهي من المقابلة، وإنما سميت القبلة قبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله، وقال قطرب: يقولون في كلامهم ليس لفلان قبلة، أي ليس له جهة يأوي إليها، وهو أيضاً مأخوذ من الإستقبال.

أما قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فاعلم أن هذا هو الجواب الأول عن تلك الشبهة، وتقريره أن الجهات كلها لله ملكاً وملكاً، فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة، بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة، وإذا كان الأمر كذلك فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة أخرى.

المسألة الرابعة: في الكلام في تلك الحكم على سبيل التفصيل، واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تكون قطعية، بل غايتها أن تكون أموراً احتمالية أما تعيين القبلة في الصلاة فقد ذكروا فيه حكماً. أحدها: أن الله تعالى خلق في الإنسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات، وقوة خيالية متصرفة في عالم الأجساد، وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها، فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلي مجرد وجب أن يضع له صورة خيالية يحسبها حتى تكون تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعاني العقلية، ولذلك فإن المهندس إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير، وضع له صورة معينة وشكلاً معيناً ليصير الحس والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم الكلي، ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم، فإنه لا بد وأن يستقبله بوجهه، وأن لا يكون معرضاً عنه، وأن يبالغ في الثناء عليه بلسانه، ويبالغ في الخدمة والتضرع له، فاستقبال القبلة في الصلاة يجري مجرى كونه مستقبلاً للملك لا معرضاً عنه، والقراءة والتسبيحات تجري مجرى الثناء عليه والركوع والسجود يجري مجرى الخدمة. وثانيها: أن المقصود من الصلاة حضور القلب وهذا الحضور لا يحصل إلا مع السكون وترك الالتفات والحركة، وهذا لا يتأتى إلا إذا بقي في جميع صلاته مستقبلاً لجهة واحدة على التعيين، فإذا اختص بعض

الجهات بمزيد شرف في الأوهام، كان استقبال تلك الجهة أولى. وثالثها: أن الله تعالى يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين، وقد ذكر المنة بها عليهم، حيث قال:﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ آل عمران: ١٠٣ إلى قوله:﴿ إِخۡوَٰنٗا ﴾ آل عمران: ١٠٣ ولو توجه كل واحد في صلاته إلى ناحية أخرى، لكان ذلك يوهم اختلافاً ظاهراً، فعين الله تعالى لهم جهة معلومة، وأمرهم جميعاً بالتوجه نحوها، ليحصل لهم الموافقة بسبب ذلك، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحب الموافقة بين عباده في أعمال الخير. ورابعها: أن الله تعالى خص الكعبة بإضافتها إليه في قوله: ﴿بَيۡتِيَ﴾ وخص المؤمنين بإضافتهم بصفة العبودية إليه، وكلتا الإضافتين للتخصيص والتكريم فكأنه تعالى قال: يا مؤمن أنت عبدي، والكعبة بيتي، والصلاة خدمتي، فأقبل بوجهك في خدمتي إلى بيتي، وبقلبك إلي. وخامسها: قال بعض المشايخ: إن اليهود استقبلوا القبلة لأن النداء لموسى عليه السلام جاء منه، وذلك قوله:﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ ﴾ القصص: ٤٤ الآية، والنصارى استقبلوا المغرب، لأن جبريل عليه السلام إنما ذهب إلى مريم عليها السلام من جانب المشرق، لقوله تعالى:﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾ مريم: ١٦ والمؤمنون استقبلوا الكعبة لأنها قبلة خليل الله، ومولد حبيب الله، وهي موضع حرم الله، وكان بعضهم يقول: استقبلت النصارى مطلع الأنوار، وقد استقبلنا مطلع سيد الأنوار، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فمن نوره خلقت الأنوار جميعاً. وسادسها: قالوا: الكعبة سرة الأرض ووسطها، فأمر الله تعالى جميع خلقه بالتوجه إلى وسط الأرض في صلاتهم، وهو إشارة إلى أنه يجب العدل في كل شيء، ولأجله جعل وسط الأرض قبلة للخلق. وسابعها: أنه تعالى أظهر حبه لمحمد عليه الصلاة والسلام بواسطة أمره باستقبال الكعبة، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان يتمنى ذلك مدة لأجل مخالفة اليهود، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ البقرة: ١٤٤ الآية، وفي الشاهد إذا وصف واحد من الناس

بمحبة آخر قالوا: فلان يحول القبلة لأجل فلان على جهة التمثيل، فالله تعالى قد حول القبلة لأجل حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام على جهة التحقيق، وقال:﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ البقرة: ١٤٤ ولم يقل قبلة أرضاها، والإشارة فيه كأنه تعالى قال: يا محمد كل أحد يطلب رضاي وأنا أطلب رضاك في الدارين، أما في الدنيا فهذا الذي ذكرناه وأما في الآخرة فقوله تعالى:﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ الضحى: ٥ وفيه إشارة أيضاً إلى شرف الفقراء: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنعام: ٥٢ وقال في الإعراض عن القبلة:﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٤٥ فكأنه تعالى قال: الكعبة قبلة وجهك، والفقراء قبلة رحمتي، فإعراضك عن قبلة وجهك، يوجب كونك ظالماً، فالإعراض عن قبلة رحمتي كيف يكون.

المسألة الخامسة: في حكمة تحويل القبلة من جهة إلى جهة، قد ذكرنا شبهة القوم في إنكار هذا التحويل، وهي أن الجهات لما كانت متساوية في جميع الصفات كان تحويل القبلة من جهة إلى جهة مجرد العبث، فلا يكون ذلك من فعل الحكيم.

والجواب عنه: أما على قول أهل السنة: إنه لا يجب تعليل أحكام الله تعالى بالحكم فالأمر ظاهر، وأما على قول المعتزلة فلهم طريقان. الأول: أنه لا يمتنع اختلاف المصالح بحسب اختلاف الجهات، وبيانه من وجوه. أحدها: أنه إذا ترسخ في أوهام بعض الناس أن هذه الجهات أشرف من غيرها بسبب أن هذا البيت بناه الخليل وعظمه، كان هذا الإنسان عند استقباله أشد تعظيماً وخشوعاً، وذلك مصلحة مطلوبة. وثانيها: أنه لما كان بناء هذا البيت سبباً لظهور دولة العرب كانت رغبتهم في تعظيمه أشد. وثالثها: أن اليهود لما كانوا يعيرون المسلمين عند استقبال بيت المقدس بأنه لولا أنا أرشدناكم إلى القبلة لما كنتم تعرفون القبلة، فصار ذلك سبباً لتشويش الخواطر، وذلك مخل بالخضوع والخشوع، فهذا يناسب الصرف عن تلك القبلة. ورابعها: أن الكعبة

منشأ محمد صلى الله عليه وسلم، فتعظيم الكعبة يقتضي تعظيم محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك أمر مطلوب لأنه متى رسخ في قلبهم تعظيمه، كان قبولهم لأوامره ونواهيه في الدين والشريعة أسرع وأسهل، والمفضي إلى المطلوب مطلوب، فكان تحويل القبلة مناسباً. وخامسها: أن الله تعالى بين ذلك في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ البقرة: ١٤٣ فأمرهم الله تعالى حين كانوا بمكة أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ليتميزوا عن المشركين، فلما هاجروا إلى المدينة وبها اليهود، أمروا بالتوجه إلى الكعبة ليتميزوا عن اليهود. أما قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالهداية قد تقدم القول فيها.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. اعلم أن في هذه الآية مسائل: المسألة الأولى: الكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كاف التشبيه، والمشبه به أي شيء هو؟ وفيه وجوه. أحدها: أنه راجع إلى معنى يهدي، أي كما أنعمنا عليكم بالهداية، كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمة وسطاً. وثانيها: قول أبي مسلم تقريره كما هديناكم إلى قبلة هي أوسط القبل وكذلك جعلناكم أمة وسطاً. وثالثها: أنه عائد إلى ما تقدم من قوله في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ البقرة: ١٣٠ أي فكما اصطفيناه في الدنيا فكذلك جعلناكم أمة وسطاً. ورابعها: يحتمل عندي أن يكون التقدير: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ البقرة: ١١٥ فهذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكاً لله وملكاً له، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلاً منه وإحساناً فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية

إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة فضلاً منه وإحساناً لا وجوباً. وخامسها: أنه قد يذكر ضمير الشيء وإن لم يكن المضمر مذكوراً إذا كان المضمر مشهوراً معروفاً كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ القدر: ١ .

المسألة الثانية: اعلم أنه إذا كان الوسط اسماً حركت الوسط كقوله: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ والظرف مخفف تقول: جلست وسط القوم، واختلفوا في تفسير الوسط وذكروا أموراً. أحدها: أن الوسط هو العدل والدليل عليه الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى، أما الآية فقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ القلم: ٢٨ أي أعدلهم، وأما الخبر فما روى القفال عن الثوري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أمة وسطاً قال عدلاً «وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الأمور أوسطها« أي أعدلها، وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم أوسط قريش نسباً، وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالنمط الأوسط» وأما الشعر فقول زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

وأما النقل فقال الجوهري في «الصحاح»: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي عدلاً وهو الذي قاله الأخفش والخليل وقطرب، وأما المعنى فمن وجوه. أحدها: أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رديئان فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيداً عن الطرفين فكان معتدلاً فاضلاً.

القول الثاني: أن الوسط من كل شيء خياره قالوا مطابق لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١١٠ .

القول الثالث: أن الرجل إذا قال: فلان أوسطنا نسباً فالمعنى أنه أكثر فضلاً وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة، وأصل هذا أن الاتباع يتحوشون الرئيس فهو في وسطهم وهم حوله فقيل وسط لهذا المعنى.

القول الرابع: يجوز أن يكونوا وسطاً على معنى أنهم متوسطون في الدين

بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر في الأشياء لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا ابناً وإلهاً ولا قصروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصروا فيه.

واعلم أن هذه الأقوال متقاربة غير متنافية والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلف الناس في أن الشهادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ تحصل في الآخرة أو في الدنيا. فالقول الأول: إنها تقع في الآخرة، والذاهبون إلى هذا القول لهم وجهان. الأول: وهو الذي عليه الأكثرون: أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم، روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله تعالى الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فتقول الأمم من أين عرفتم فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام، فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ النساء: ٤١.

المسألة الرابعة: إنما قال: ﴿شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: شهداء للناس لأن قولهم يقتضي التكليف إما بقول وإما بفعل وذلك عليه لا له في الحال، فإن قيل: لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؟ قلنا لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم وفي الآخر الاختصاص بكون الرسول شهيداً عليهم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. اعلم أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ﴾ معناه ما شرعنا وما حكمنا كقوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾ المائدة: ١٠٣ أي ما شرعها ولا جعلها ديناً، وقوله:﴿كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ أي كنت معتقداً لاستقبالها، كقول القائل: كان لفلان على فلان دين، وقوله: ﴿كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ ليس بصفة للقبلة، إنما هو ثاني

مفعولي جعل يريد: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ﴾ الجهة التي كنت عليها.

أما قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: وما جعلنا كذا وكذا إلا لنعلم كذا يوهم أن العلم بذلك الشيء لم يكن حاصلاً فهو فعل ذلك الفعل ليحصل له ذلك العلم وهذا يقتضي أن الله تعالى لم يعلم تلك الأشياء قبل وقوعها، ونظيره في الإشكال قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ محمد: ٣١ وقوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الأنفال: ٦٦ وقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه: ٤٤ وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ العنكبوت: ٣ وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٢ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ سبأ: ٢١ والكلام في هذه المسألة أمر مستقصى في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ والمفسرون أجابوا عنه من وجوه. أحدها: أن قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ معناه إلا ليعلم حزبنا من النبيين والمؤمنين كما يقول الملك: فتحنا البلدة الفلانية بمعنى: فتحها أولياؤنا. وفي الحديث: «من أهان لي ولياً فقد أهانني». وثانيها: معناه ليحصل المعدوم فيصير موجوداً، فقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ معناه: إلا لنعلمه موجوداً. وثالثها: إلا لنميز هؤلاء من هؤلاء بانكشاف ما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق، فيعلم المؤمنون من يوالون منهم ومن يعادون، فسمي التمييز علماً، لأنه أحد فوائد العلم وثمراته. ورابعها: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ معناه: إلا لنرى، ومجاز هذا أن العرب تضع العلم مكان الرؤية، والرؤية مكان العلم كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ الفجر: ٦ الفيل: ١ إبراهيم: ١٩ ورأيت، وعلمت، وشهدت، ألفاظ متعاقبة. وخامسها: ما ذهب إليه الفراء: وهو أن حدوث العلم في هذه الآية راجع إلى المخاطبين. فكذلك قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ إلا لتعلموا والغرض من هذا الجنس من الكلام: الاستمالة والرفق في الخطاب، كقوله: ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ سبأ: ٢٤ فأضاف الكلام الموهم للشك إلى نفسه ترقيقاً للخطاب ورفقاً بالمخاطب،

فكذا قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾. وسادسها: نعاملكم معاملة المختبر الذي كأنه لا يعلم، إذ العدل يوجب ذلك.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هذه المحنة حصلت بسبب تعيين القبلة أو بسبب تحويلها، فمن الناس من قال: إنما حصلت بسبب تعيين القبلة لأنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إلى الكعبة، فلما جاء المدينة صلى إلى بيت المقدس، فشق ذلك على العرب من حيث إنه ترك قبلتهم، ثم إنه لما حوله مرة أخرى إلى الكعبة شق ذلك على اليهود من حيث إنه ترك قبلتهم، وأما الأكثرون من أهل التحقيق قالوا: هذه المحنة إنما حصلت بسبب التحويل فإنهم قالوا: إن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان على يقين من أمره لما تغير رأيه، روى القفال عن ابن جريج أنه قال: بلغني أنه رجع ناس ممن أسلم، وقالوا مرة ههنا ومرة ههنا، وقال السدي: لما توجه النبي عليه الصلاة والسلام نحو المسجد الحرام اختلف الناس فقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها، وقال المسلمون: لسنا نعلم حال إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس، وقال آخرون: اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، وقال المشركون: تحير في دينه، واعلم أن هذا القول الأخير أولى لأن الشبهة في أمر النسخ أعظم من الشبهة الحاصلة بسبب تعيين القبلة، وقد وصفها الله تعالى بالكبيرة فقال: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فكان حمله عليه أولى.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ استعارة ومعناه: من يكفر بالله ورسوله، ووجه الاستعارة أن المنقلب على عقبيه قد ترك ما بين يديه وأدبر عنه، فلما تركوا الإيمان والدلائل صاروا بمنزلة المدبر عما بين يديه فوصفوا بذلك كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ المدثر: ٢٣ وكما قال: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ طه: ٤٨ وكل ذلك تشبيه. أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ﴾. ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿وَإِن﴾ في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ البقرة: ١٤٣ هي

المخففة التي تلزمها اللام، والغرض منها توكيد المعنى في الجملة.

المسألة الثانية: الضمير في قوله:﴿كَانَتْ﴾ إلى أي شيء يعود؟ فيه وجهان: الأول: أنه يعود إلى القبلة لأنه لا بد له من مذكور سابق وما ذاك إلا القبلة في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ البقرة: ١٤٣ . الثاني: أنه عائد إلى ما دل عليه الكلام السابق وهي مفارقة القبلة، والتأنيث للتولية.

أما قوله تعالى: ﴿لَكَبِيرَةً﴾ فالمعنى: لثقيلة شاقة مستنكرة كقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الكهف: ٥ أي: عظمت الفرية بذلك.

أما قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فاحتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة خلق الأعمال فقالوا: المراد من الهداية إما الدعوة أو وضع الدلالة أو خلق المعرفة، والوجهان الأولان ههنا باطلان، وذلك لأنه تعالى حكم بكونها ثقيلة على الكل إلا على الذين هدى الله فوجب أن يقال: إن الذي هداه الله لا يثقل ذلك عليه، والهداية بمعنى الدعوة، ووضع الدلائل عامة في حق الكل، فوجب أن لا يثقل ذلك عليه، فلما ثقل عليهم علمنا أن المراد من الهداية ههنا خلق المعرفة والعلم وهو المطلوب.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أن رجالاً من المسلمين كأبي أمامة، وسعد بن زرارة، والبراء بن عازب، والبراء بن معرور، وغيرهم ماتوا على القبلة الأولى فقال عشائرهم: يا رسول الله توفي إخواننا على القبلة الأولى فكيف حالهم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن قوله:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾خطاب مع من؟ على قولين: الأول: أنه مع المؤمنين.

القول الثاني: قول أبي مسلم، وهو أنه يحتمل أن يكون ذلك خطاباً لأهل الكتاب، والمراد بالإيمان صلاتهم وطاعتهم قبل البعثة ثم نسخ، وإنما اختار أبو مسلم هذا القول لئلا يلزمه وقوع النسخ في شرعنا.

المسألة الثالثة: استدلت المعتزلة بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ على أن الإيمان اسم لفعل الطاعات فإنه تعالى أراد بالإيمان ههنا الصلاة. والجواب: لا نسلم أن المراد من الإيمان ههنا الصلاة، بل المراد منه التصديق والإقرار فكأنه تعالى قال: أنه لا يضيع تصديقكم بوجوب تلك الصلاة سلمنا أن المراد من الإيمان ههنا الصلاة ولكن الصلاة أعظم الإيمان وأشرف نتائجه وفوائده فجاز إطلاق اسم الإيمان على الصلاة على سبيل الإستعارة من هذه الجهة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ أي لا يضيع ثواب إيمانكم لأن الإيمان قد انقضى وفني وما كان كذلك استحال حفظه وإضاعته إلا أن استحقاق الثواب قائم بعد انقضائه فصح حفظه وإضاعته وهو كقوله تعالى: ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم ﴾ آل عمران: ١٩٥ .

أما قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾.

قال القفال رحمه الله: الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه وإزالة الضرر كقوله: ﴿ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ النور: ٢ أي لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما، وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام، وقد سمى الله تعالى المطر رحمة فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ ﴾ الأعراف: ٥٧ لأنه إفضال من الله وإنعام، فذكر الله تعالى الرأفة أولاً بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم ويخفف المحن عنهم، ثم ذكر الرحمة لتكون أعم وأشمل، ولا تختص رحمته بذلك النوع بل هو رحيم من حيث أنه دافع للمضار التي هي الرأفة وجالب للمنافع معاً.

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فيه قولان: القول الأول: وهو المشهور الذي عليه أكثر المفسرين أن ذلك كان لانتظار تحويله من بيت المقدس إلى الكعبة، والقائلون بهذا القول ذكروا وجوهاً. أحدها: أنه كان يكره التوجه إلى بيت المقدس، ويحب التوجه إلى الكعبة، إلا أنه ما كان يتكلم بذلك فكان يقلب وجهه في السماء لهذا المعنى، روى عن ابن عباس أنه قال: «يا جبريل وددت أن الله تعالى صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها فقد كرهتها» فقال له جبريل: «أنا عبد مثلك فاسأل ربك ذلك» فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء مجيء جبريل بما سأل فأنزل الله تعالى هذه الآية.

القول الثاني: وهو قول أبي مسلم الأصفهاني، قالوا: لولا الأخبار التي دلت على هذا القول وإلا فلفظ الآية يحتمل وجهاً آخر، وهو أنه يحتمل أنه عليه السلام إنما كان يقلب وجهه في أول مقدمه المدينة، فقد روي أنه عليه السلام كان إذا صلى بمكة جعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، وهذه صلاة إلى الكعبة فلما هاجر لم يعلم أين يتوجه فانتظر أمر الله تعالى حتى نزل قوله: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، واختلفوا في صلاته إلى بيت المقدس، فقال قوم: كان بمكة يصلي إلى الكعبة فلما صار إلى المدينة أمر بالتوجه إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، وقال قوم: بل كان بمكة يصلي إلى بيت المقدس، إلا أنه يجعل الكعبة بينه وبينها: وقال قوم: بل كان يصلي إلى بيت المقدس فقط وبالمدينة أولاً سبعة عشر شهراً، ثم أمره الله تعالى بالتوجه إلى الكعبة لما فيه من الصلاح.

واعلم أنه على أي الوجهين كان قد صار منسوخاً، والمشهور أن التوجه إلى بيت المقدس إنما صار منسوخاً بالأمر بالتوجه إلى الكعبة، ومن الناس من قال: التوجه إلى بيت المقدس صار منسوخاً بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ثم إن ذلك صار منسوخاً بقوله: ﴿ فَوَلِّ

وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ واحتجوا عليه بالقرآن والأثر، أما القرآن فهو أنه تعالى ذكر أولاً قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ثم ذكر بعد: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ البقرة: ١٤٢ ثم ذكر بعده: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وهذا الترتيب يقتضي صحة المذهب الذي قلناه بأن التوجه إلى بيت المقدس صار منسوخاً بقوله: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فلزم أن يكون قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ متأخراً في النزول والدرجة عن قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فحينئذ يكون تقديمه عليه في الترتيب على خلاف الأصل، فثبت ما قلناه، وأما الأثر فما روي عن ابن عباس أمر القبلة أول ما نسخ من القرآن، والأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مذكور في القرآن، إنما المذكور في القرآن: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾

فوجب أن يكون قوله: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ناسخاً لذلك، لا للأمر بالتوجه إلى بيت المقدس.

أما قوله: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ فلنعطينك ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا، إذا جعلته والياً له، أو فلنجعلنك تلي سمتها دون سمة بيت المقدس.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ تَرْضَىٰهَا ﴾ فيه وجوه. أحدها: ترضاها تحبها وتميل إليها، لأن الكعبة كانت أحب إليه من غيرها بحسب ميل الطبع، وثانيها: ﴿ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ أي تحبها بسبب اشتمالها على المصالح الدينية. وثالثها: قال الأصم: أي كل جهة وجهك الله إليها فهي لك رضا لا يجوز أن تسخط، كما فعل من انقلب على عقيبه من العرب الذين كانوا قد أسلموا، فلما تحولت القبلة ارتدوا. ورابعها: ﴿ تَرْضَىٰهَا ﴾ أي ترضى عاقبتها لأنك تعرف بها من يتبعك للإسلام، فمن يتبعك لغير ذلك من دنيا يصيبها أو مال يكتسبه.

أما قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الوجه ههنا جملة بدن الإنسان لأن الواجب على الإنسان أن يستقبل القبلة بجملته لا بوجهه فقط والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء لأن الوجه أشرف الأعضاء ولأن بالوجه تميز بعض الناس عن بعض، فلهذا السبب قد يعبر عن كل الذات بالوجه.

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: الشطر اسم مشترك يقع على معنيين. أحدهما: النصف يقال: شطرت الشيء أي جعلته نصفين، ويقال في المثل أجلب جلباً لك شطره أي نصفه. والثاني: نحوه وتلقاءه وجهته. وقد اختلفوا في أن المراد من المسجد الحرام أي شيء هو؟ فحكي في كتاب «شرح السنة» عن ابن عباس أنه قال: البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب وهذا قول مالك. وقال آخرون: القبلة هي الكعبة والدليل عليه ما أخرج في الصحيحين عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، قال: أخبرني أسامة بن زيد، قال لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه، فلما خرج صلى ركعتين في قبل الكعبة وقال: هذه القبلة. وقال آخرون: المراد من المسجد الحرام الحرم كله والدليل عليه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الإسراء: ١ وهو عليه الصلاة والسلام إنما أسري به خارج المسجد، فدل هذا على أن الحرم كله مسمى بالمسجد الحرام.

المسألة الرابعة: في دلائل القبلة: اعلم أن الدلائل إما أرضية وهي الاستدلال بالجبال، والقرى، والأنهار، أو هوائية وهي الاستدلال بالرياح، أو سماوية وهي النجوم.

المسألة الخامسة: معرفة دلائل القبلة فرض على العين أم فرض على الكفاية ففيه وجهان أصحهما فرض على العين، لأن كل مكلف فهو مأمور بالاستقبال ولا يمكنه الاستقبال إلا بواسطة معرفة دلائل القبلة، وما لا يتأدى

الواجب إلا به فهو واجب.

المسألة السادسة: اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ عام في الأشخاص والأحوال، إلا أنا أجمعنا على أن الاستقبال خارج الصلاة غير واجب، بل أنه طاعة لقوله عليه السلام: «خير المجالس ما استقبل به القبلة» فبقي أن وجوب الاستقبال من خواص الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا ليس بتكرار، وبيانه من وجهين. أحدهما: أن قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ خطاب مع الرسول عليه السلام لا مع الأمة، وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾خطاب مع الكل. وثانيهما: أن المراد بالأولى مخاطبتهم وهم بالمدينة خاصة، وقد كان من الجائز لو وقع الاختصار عليه أن يظن أن هذه القبلة قبلة لأهل المدينة خاصة، فبين الله تعالى أنهم أينما حصلوا من بقاع الأرض يجب أن يستقبلوا نحو هذه القبلة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ يعني: وأينما كنتم وموضع كنتم من الإعراب جزم بالشرط كأنه قيل: حيثما تكونوا، والفاء جواب.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهود خاصة، والكتاب هو التوراة عن السدي، وقيل: بل المراد أحبار اليهود وعلماء النصارى وهو الصحيح لعموم اللفظ والكتاب المتقدم هو التوراة والإنجيل، ولا بد أن يكونوا عدداً قليلاً لأن الكثير لا يجوز عليهم التواطؤ على الكتمان.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ راجع إلى مذكور سابق، وقد تقدم ذكر الرسول كما تقدم ذكر القبلة، فجاز أن يكون المراد أن القوم

يعلمون أن الرسول مع شرعه ونبوته حق فيشتمل ذلك على أمر القبلة وغيرها، ويحتمل أن يرجع إلى هذا التكليف الخاص بالقبلة، وأنهم يعلمون أنه الحق، وهذا الاحتمال الأخير أقرب لأنه أليق بالكلام إذ المقصود بالآية ذلك دون غيره، ثم اختلفوا في أنهم كيف عرفوا ذلك؟ وذكروا فيه وجوهاً. أحدها: أن قوماً من علماء اليهود كانوا عرفوا في كتب أنبيائهم خبر الرسول وخبر القبلة وأنه يصلي إلى القبلتين. وثانيها: أنهم كانوا يعلمون أن الكعبة هي البيت العتيق الذي جعله الله تعالى قبلة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وثالثها: أنهم كانوا يعلمون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما ظهر عليه من المعجزات، ومتى علموا نبوته فقد علموا لا محالة أن كل ما أتى به فهو حق فكان هذا التحويل حقاً.

وأما قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن عمار وحمزة والكسائي: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب للمسلمين، والباقون بالياء على أنه راجع إلى اليهود.

المسألة الثانية: إنا إن جعلناه خطاباً للمسلمين فهو وعد لهم وبشارة أي لا يخفى على جدكم واجتهادهم في قبول الدين، فلا أخل بثوابكم، وإن جعلناه كلاماً مع اليهود فهو وعيد وتهديد لهم، ويحتمل أيضاً أنه ليس بغافل عن مكافأتهم ومجازاتهم وإن لم يعجلها لهم كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ إبراهيم: ٤٢. ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أن هذه القبلة حق، بين بعد ذلك صفتهم لا تتغير في الاستمرار على المعاندة، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في قوله: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فقال الأصم: المراد علماؤهم الذين أخبر الله تعالى عنهم في الآية المتقدمة بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ البقرة: ١٤٤.

وقال آخرون: بل المراد جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واحتجوا عليه بأن قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ صيغة عموم فيتناول الكل.

المسألة الثانية: إنما حكم الله تعالى عليهم بأنهم لا يرجعون عن أباطيلهم بسبب البرهان، وذلك لأن إعراضهم عن قبول هذا الدين ليس عن شبهة يزيلها بإيراد الحجة، بل هو محض المكابرة والعناد والحسد، وذلك لا يزول بإيراد الدلائل.

المسألة الثالثة: روي أن يهود المدينة ونصارى نجران قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: أئتنا بآية كما أتى الأنبياء قبلك فأنزل الله تعالى هذه الآية والأقرب أن هذه الآية ما نزلت في واقعة مبتدأة بل هي من بقية أحكام تحويل القبلة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ففيه أقوال. الأول: أنه دفع لتجويز النسخ، وبيان أن هذه القبلة لا تصير منسوخة. والثاني: حسماً لأطماع أهل الكتاب فإنهم قالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجوا أن يكون صاحبنا الذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. الثالث: المقابلة يعني ما هم بتاركي باطلهم وما أنت بتارك حقك. الرابع: أراد أنه لا يجب عليك استصلاحهم باتباع قبلتهم، لأن ذلك معصية. الخامس: وما أنت بتابع قبلة جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأن قبلة اليهود مخالفة لقبلة النصارى، فلليهود بيت المقدس وللنصارى المشرق، فالزم قبلتك ودع أقوالهم.

أما قوله: ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ قال القفال: هذا يمكن حمله على الحال وعلى الاستقبال، أما على الحال فمن وجوه. الأول: أنهم ليسوا مجتمعين على قبلة واحدة حتى يمكن إرضاؤهم باتباعها.

الثاني: أن اليهود والنصارى مع اتفاقهم على تكذيبك متباينون في القبلة فكيف يدعونك إلى ترك قبلتك مع أنهم فيما بينهم مختلفون. وجوابه أنا إن حملنا أهل الكتاب على علمائهم الذين كانوا في ذلك الزمان فلم يثبت عندنا أن أحداً منهم يتبع قبلة الآخر فالخلف غير لازم، وإن حملناه على الكل قلنا إنه عام دخله التخصيص.

أما قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: الهوى المقصور هو ما يميل إليه الطبع والهواء الممدود معروف.

المسألة الثانية: اختلفوا في المخاطب بهذا الخطاب، قال بعضهم: الرسول وقال بعضهم: الرسول وغيره. وقال آخرون: بل غيره، لأنه تعالى عرف أن الرسول لا يفعل ذلك فلا يجوز أن يخصه بهذا الخطاب، وهذا القول الثالث خطأ لأن كل ما لو وقع من الرسول لقبح، والالجاء عنه مرتفع، فهو منهى عنه، وإن كان المعلوم منه أنه لا يفعله.

ودلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم لأن قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يدل على ذلك. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالمراد إنك لو فعلت ذلك لكنت بمنزلة القوم في كفرهم وظلمهم لأنفسهم، والغرض منه التهديد والزجر والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

اعلم أن في الآية مسائل: المسألة الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وإن كان عاماً بحسب اللفظ لكنه مختص بالعلماء منهم، والدليل عليه أنه تعالى وصفهم بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والجمع العظيم الذي

علموا شيئاً استحال عليهم الاتفاق على كتمانه في العادة، ألا ترى أن واحداً لو دخل البلد وسأل عن الجامع لم يجز أن لا يلقاه أحد إلا بالكذب والكتمان، بل إنما يجوز ذلك على الجمع القليل، والله أعلم.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾إلى ماذا يرجع؟ ذكروا فيه وجوهاً. أحدها: أنه عائد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أي يعرفونه معرفة جلية، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم.

وهنا يتبادر سؤال: لم خص الأبناء الذكور؟

الجواب: لأن الذكور أعرف وأشهر وهو بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فاعلم أن الذين أوتوا الكتاب وعرفوا الرسول فمنهم من آمن به مثل عبد الله بن سلام وأتباعه، ومنهم من بقي على كفره، ومن آمن لا يوصف بكتمان الحق، وإنما يوصف بذلك من بقي على كفره، لا جرم قال الله تعالى:﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فوصف البعض بذلك، ودل بقوله: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ على سبيل الذم، على أن كتمان الحق في الدين محظور إذا أمكن إظهاره، واختلفوا في المكتوم فقيل: أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: أمر القبلة وقد استقصينا في هذه المسألة.

أما قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف، أي هو الحق، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ يجوز أن يكون خبراً بغير خبر، وأن يكون حالاً، ويجوز أيضاً أن يكون مبتدأ خبره: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وقرأ علي رضي الله عنه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ على الإبدال من الأول، أي يكتمون الحق من ربك.

المسألة الثانية: الألف واللام في قوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فيه وجهان: الأول: أن يكون للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

أو إلى الحق الذي في قوله: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك، وأن يكون للجنس على معنى: الحق من الله تعالى لا من غيره يعني إن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل.

أما قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في ماذا اختلفوا فيه على أقوال. أحدها: فلا تكونن من الممترين في أن الذين تقدم ذكرهم علموا صحة نبوتك، وأن بعضهم عاند وكتم، قاله الحسن. وثانيها: بل يرجع إلى أمر القبلة. وثالثها: إلى صحة نبوته وشرعه، وهذا هو الأقرب لأن أقرب المذكورات إليه قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإذا كان ظاهره يقتضي النبوة وما تشتمل عليه من قرآن ووحي وشريعة، فقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وجب أن يكون راجعاً إليه.

المسألة الثانية: أنه تعالى وإن نهاه عن الامتراء فلا يدل ذلك على أنه كان شاكاً فيه، وقد تقدم القول في بيان هذه المسألة والله أعلم.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

اعلم أنهم اختلفوا في المراد بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما قال: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ ولم يقل لكل قوم أو أمة لأنه معروف المعنى عندهم فلم يضر حذف المضاف إليه وهو كثير في كلامهم كقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: ٤٨ .

المسألة الثانية: ذكروا فيه أربعة أوجه. أحدها: أنه يتناول جميع الفرق، أعني المسلمين واليهود والنصارى والمشركين، وهو قول الأصم، قال: لأن في المشركين من كان يعبد الأصنام ويتقرب بذلك إلى الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يونس: ١٨ وثانيها:

وهو قول أكثر علماء التابعين، أن المراد أهل الكتاب وهم: المسلمون واليهود والنصارى، والمشركون غير داخلين فيه. وثالثها: قال بعضهم: المراد لكل قوم من المسلمين وجهة أي جهة من الكعبة يصلي إليها: جنوبية أو شمالية، أو شرقية أو غربية، واحتجوا على هذا القول بوجهين. الأول: قوله تعالى: ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ يعني الله موليها وتولية الله لم تحصل إلا في الكعبة، لأن ما عداها تولية الشيطان. الثاني: أن الله تعالى عقبه بقوله: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾والظاهر أن المراد من هذه الخيرات ما لكل أحد من جهة، والجهات الموصوفة بالخيرية ليست إلا جهات الكعبة. ورابعها: قال آخرون: ولكل وجهة أي لكل واحد من الرسل وأصحاب الشرائع جهة قبلة، فقبلة المقربين: العرش، وقبلة الروحانيين: الكرسي، وقبلة الكروبيين: البيت المعمور، وقبلة الأنبياء الذين قبلك بيت المقدس، وقبلتك الكعبة.

المسألة الثانية: قال الفاء: وجهة، وجهة، ووجه بمعنى واحد، وهو كقوله تعالى:﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا ﴾ الحج: ٦٧ .

أما قوله: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ففيه وجهان. الأول: أنه عائد إلى الكل، أي ولكل أحد وجهة هو مولي وجهه إليها. الثاني: أنه عائد إلى اسم الله تعالى، أي الله تعالى يوليها إياه.

أما قوله: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ فمعناه الأمر بالبدار إلى الطاعة في وقتها، واعلم أن أداء الصلاة في أول الوقت عند الشافعي رضي الله عنه أفضل، خلافاً لأبي حنيفة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يا علي ثلاث لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت لها كفؤا». وعن ابن مسعود أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة لميقاتها الأول. وإنا توافقنا على أن أحد أسباب الفضيلة فيما بين الصحابة المسابقة إلى الإسلام حتى وقع الخلاف الشديد بين أهل السنة وغيرهم أن أبا بكر أسبق

إسلاماً أم علياً، وما ذاك إلا اتفاقهم على أن المسابقة في الطاعة توجب مزيد الفضل وذلك يدل على قولنا.

وقوله عليه السلام في خطبة له: «وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا« ولا شك أن الصلاة من الأعمال الصالحة. وأن تعجيل حقوق الآدميين أفضل من تأخيرها، فوجب أن يكون الحال في أداء حقوق الله تعالى كذلك، والجامع بينهما رعاية معنى التعظيم.

أما قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فهو وعد لأهل الطاعة، ووعيد لأهل المعصية، كأنه تعالى قال: استبقوا أيها المحققون والعارفون بالنبوة والشريعة الخيرات وتحملوا فيها المشاق لتصلوا يوم القيامة إلى ما لكم عند الله من أنواع الكرامة والزلفى، ثم إنه سبحانه حقق بقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك لأن الإعادة في نفسها ممكنة وهو قادر على جميع الممكنات، فوجب أن يكون قادراً على الإعادة، وأما المسائل المستنبطة من هذه الآية، فقد ذكرناها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ٢٠.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

اعلم أن أول ما في هذه الآية من البحث أن الله تعالى قال قبل هذه الآيات: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ ثم ذكر ههنا ثانياً قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن

رَبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ وذكر ثالثاً قوله: ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾ فهل في هذا التكرار فائدة أم لا؟ وللعلماء فيه أقوال. أحدها: أن الأحوال ثلاثة، أولها: أن يكون الإنسان في المسجد الحرام. وثانيها: أن يخرج عن المسجد الحرام ويكون في البلد. وثالثها: أن يخرج عن البلد إلى أقطار الأرض، فالآية الأولى محمولة على الحالة الأولى، والثانية على الثانية، والثالثة على الثالثة، لأنه قد كان يتوهم أن للقرب حرمة لا تثبت فيها للبعد، فلأجل إزالة هذا الوهم كرر الله تعالى هذه الآيات.

والجواب الثاني: أنه سبحانه إنما أعاد ذلك ثلاث مرات لأنه علق بها كل مرة فائدة زائدة أما في المرة الأولى فبين أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأمر هذه القبلة حق، لأنهم شاهدوا ذلك في التوراة والإنجيل، وأما في المرة الثانية فبين أنه تعالى يشهد أن ذلك حق، وشهادة الله بكونه حقاً مغايرة لعلم أهل الكتاب بكونه حقاً، وأما في المرة الثالثة فبين أنه إنما فعل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة، فلما اختلفت هذه الفوائد حسنت إعادتها لأجل أن يترتب في كل واحدة من المرات واحدة من هذه الفوائد، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ البقرة: ٧٩ .

والجواب الثالث: أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ ﴾ فكان ربما يخطر ببال جاهل أنه تعالى إنما فعل ذلك طلباً لرضا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ ﴾ فأزال الله تعالى هذا الوهم الفاسد بقوله: ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي نحن ما حولناك إلى هذه القبلة بمجرد رضاك، بل لأجل أن هذا

التحويل هو الحق الذي لا محيد عنه فاستقبالها ليس لأجل الهوى والميل كقبلة اليهود المنسوخة التي إنما يقيمون عليها بمجرد الهوى والميل، ثم أنه تعالى قال ثالثاً: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ والمراد دوموا على هذه القبلة في جميع الأزمنة والأوقات، ولا تولوا فيصير ذلك التولي سبباً للطعن في دينكم، والحاصل أن الآية السالفة أمر بالدوام في جميع الأمكنة والثانية أمر بالدوام في جميع الأزمنة والأمكنة، والثالثة أمر بالدوام في جميع الأزمنة وإشعار بأن هذا لا يصير منسوخاً ألبتة.

والجواب الرابع: أن الأمر الأول مقرون بإكرامه إياهم بالقبلة التي كانوا يحبونها وهي قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام والثاني مقرون بقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ ﴾ البقرة: ١٤٨ أي لكل صاحب دعوة وملة قبلة يتوجه إليها فتوجهوا أنتم إلى أشرف الجهات التي يعلم الله تعالى أنها حق وذلك هو قوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾. والثالث مقرون بقطع الله تعالى حجة من خاصمه من اليهود في أمر القبلة فكانت هذه عللاً ثلاثاً قرن بكل واحدة منها أمر بالتزام القبلة نظيره أن يقال: ألزم هذه القبلة فإنها القبلة التي كنت تهواها، ثم يقال: ألزم هذه القبلة فإنها قبلة الحق لا قبلة الهوى، وهو قوله:﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ ﴾ ثم يقال: إلزم هذه القبلة فإن في لزومك إياها انقطاع حجج اليهود عنك، وهذا التكرار في هذا الموضع كالتكرار في قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴾ الرحمن: ١٢ وكذلك ما كرر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: ١٧٤ .

والجواب الخامس: أن هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة وإيضاح البينات.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤ يعني ما يعمله هؤلاء المعاندون الذين يكتمون الحق وهم يعرفونه ويدخلون الشبهة على العامة بقولهم:﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ﴾ البقرة: ١٤٢ وبأنه قد اشتاق إلى مولده ودين آبائه فإن الله عالم بهذا فأنزل ما أبطله وكشف عن وهنه وضعفه.

أما قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا الكلام يوهم حجاجاً وكلاماً تقدم من قبل في باب القبلة عن القوم فأراد الله تعالى أن يبين أن تلك الحجة تزول الآن باستقبال الكعبة، وفي كيفية تلك الحجة روايات. أحدها: أن اليهود قالوا: تخالفنا في ديننا وتتبع قبلتنا. وثانيها: قالوا: ألم يدر محمد أين يتوجه في صلاته حتى هديناه. وثالثها: أن العرب قالوا: إنه كان يقول: أنا على دين إبراهيم والآن ترك التوجه إلى الكعبة، ومن ترك التوجه إلى الكعبة فقد ترك دين إبراهيم عليه السلام فصارت هذه الوجوه وسائل لهم إلى الطعن في شرعه عليه الصلاة والسلام، إلا أن الله تعالى لما علم أن الصلاح في ذلك أوجب عليهم التوجه إلى بيت المقدس لما فيه من المصلحة في الدين، لأن قولهم لا يؤثر في المصالح، وقد بينا من قبل تلك المصلحة، وهي تميز من اتبعه بمكة ممن أقام على تكذيبه، فإن ذلك الامتياز ما كان يظهر إلا بهذا الجنس ولما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة تغيرت المصلحة فاقتضت الحكمة تحويل القبلة إلى الكعبة، فلهذا قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾ يعني تلك الشبهة التي ذكروها تزول بسبب هذا التحويل، ولما كان فيهم من المعلوم من حاله أنه يتعلق عند هذا التحويل بشبهة أخرى، وهو قول بعض العرب: إن محمداً عليه الصلاة والسلام عاد إلى ديننا في الكعبة وسيعود إلى ديننا بالكلية وكان التمسك بهذه الشبهة والاستمرار عليها سبباً للبقاء على الجهل والكفر، وذلك ظلم على النفس على

ما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣ فلا جرم قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾.

المسألة الثانية: قرأ نافع: ﴿لَيْلاً﴾ يترك الهمزة وكل همزة مفتوحة قبلها كسرة فإنه يقلبها ياء والباقون بالهمزة وهو الأصل.

المسألة الثالثة: ﴿لِئَلَّا﴾ موضعه نصب، والعامل فيه ﴿وَلِّوا﴾ أي ولوا لئلا، وقال الزجاج التقدير: عرفتكم ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة.

المسألة الرابعة: قيل: الناس هم أهل الكتاب عن قتادة والربيع وقيل: هو على العموم.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ فالمعنى لا تخشوا من تقدم ذكره ممن يتعنت ويجادل ويحاج، ولا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضررنكم واخشوني، يعني احذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم وفرضت عليكم، وهذه الآية يدل على أن الواجب على المرء في كل أفعاله وتروكه أن ينصب بين عينيه: خشية عقاب الله، وأن يعلم أنه ليس في يد الخلق شيء ألبتة، وأن لا يكون مشتغل القلب بهم، ولا ملتفت الخاطر إليهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ فقد اختلفوا في متعلق اللام على وجوه. أحدها: أنه راجع إلى قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ فبين الله تعالى أنه حولهم إلى هذه الكعبة لهاتين الحكمتين. إحداهما: لانقطاع حجتهم عنه. والثانية: لتمام النعمة، وقد بين أبو مسلم بن بحر الأصفهاني ما في ذلك من النعمة، وهو أن القوم كانوا يفتخرون باتباع إبراهيم في جميع ما كانوا يفعلون فلما حول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس لحقهم ضعف قلب، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب التحول إلى الكعبة لما فيه من شرف البقعة فهذا موضع النعمة. وثانيها: أن متعلق اللام محذوف واخشوني، معناه: ولإتمام النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك.

وثالثها: أن يعطف على علة مقدرة، كأنه قيل: واحشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم، والقول الأول أقرب إلى الصواب فإن قيل: إنه تعالى أنزل عند قرب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ المائدة: ٣ .فبين أن تمام النعمة إنما حصل ذلك اليوم، فكيف قال قبل ذلك اليوم بسنين كثيرة في هذه الآية: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ قلنا: تمام النعمة اللائقة في كل وقت هو الذي خصه به، وفي الحديث: «تمام النعمة دخول الجنة «وعن علي رضي الله عنه: تمام النعمة الموت على الإسلام.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

اعلم أنا قد بينا أن الله تعالى استدل على صحة دين محمد عليه الصلاة والسلام بوجوه، بعضها إلزامية، وهو أن هذا الدين دين إبراهيم فوجب قبوله، وهو المراد بقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ البقرة: ١٣٠ وبعضها برهانية وهو قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ البقرة: ١٣٦ ثم إنه سبحانه وتعالى عقب هذا الإستدلال بحكاية شبهتين لهم. إحداهما: قوله: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ البقرة: ١٣٥ . والثانية: استدلالهم بإنكار النسخ على القدح في هذه الشريعة، وهو قول: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ البقرة: ١٤٢ وأطنب الله تعالى في الجواب عن الشبهة وبالحق فعل ذلك، لأن أعظم الشبهة لليهود في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام النسخ، فلا جرم أطنب الله تعالى في الجواب عن هذه الشبهة، وختم ذلك الجواب بقوله: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ فصار هذا الكلام مع ما فيه من الجواب عن الشبهة تنبيهاً على عظيم نعم الله تعالى، ولا شك أن ذلك أشد استمالة لحصول العز والشرف في الدنيا، والتخلص في الذل والمهانة يكون مرغوباً فيه، وعند اجتماع الأمرين فقد بلغ النهاية في هذا الباب.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا ﴾ مصدرية كأنه قيل: كإرسالنا فيكم، ويحتمل أن تكون كافة.

أما قوله تعالى: ﴿فِيكُمۡ ﴾ فالمراد به العرب وكذلك قوله: ﴿مِّنكُمۡ ﴾ وفي إرساله فيهم ومنهم، نعم عظيمة عليهم لما لهم فيه الشرف، ولأن المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الإنقياد للغير فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب.

أما قوله تعالى: ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ فاعلم أنه من أعظم النعم لأنه معجزة باقية، ولأنه يتلى فيتأدى به العبادات، ولأنه يتلى فيستفاد منه جميع العلوم، ولأنه يتلى فيستفاد منه مجامع الأخلاق الحميدة، فكأنه يحصل من تلاوته كل خيرات الدنيا والآخرة.

أما قوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ ﴾ ففيه أقوال. أحدها: أنه عليه الصلاة والسلام يعلمهم ما إذا تمسكوا به صاروا أزكياء عن الحسن. وثانيها: يزكيهم بالثناء والمدح، أي يعلم ما أنتم عليه من محاسن الأخلاق فيصفكم به، كما يقال: إن المزكي زكي الشاهد، أي وصفه بالزكاء. وثالثها: أن التزكية عبارة عن التنمية، كأنه قال يكثركم، كما قال: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ ﴾ الأعراف: ٨٦ وذلك بأن يجمعهم على الحق فيتواصلوا ويكثروا، عن أبي مسلم، قال القاضي: وهذه الوجوه غير متنافية فلعله تعالى يفعل بالمطيع كل ذلك. أما قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ فليس بتكرار لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم، وأما ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾فهي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ هي سنة الرسول عليه السلام. أما قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ فهذا تنبيه على أنه تعالى أرسله على حين فترة من الرسل وجهالة من الأمم، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم فبعث الله تعالى محمداً بالحق حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم وذلك من أعظم أنواع النعم.

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾

اعلم أن الله تعالى كلفنا في هذه الآية بأمرين: الذكر، والشكر، أما الذكر فقد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالجوارح، فذكرهم إياه باللسان أن يحمدوه ويسبحوه ويمجدوه ويقرؤا كتابه، وذكرهم إياه بقلوبهم على ثلاثة أنواع. أحدها: أن يتفكروا في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته، ويتفكروا في الجواب عن الشبهة القادحة في تلك الدلائل. وثانيها: أن يتفكروا في الدلائل الدالة على كيفية تكاليفه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، فإذا عرفوا كيفية التكليف وعرفوا ما في الفعل من الوعد، وفي الترك من الوعيد سهل فعله عليهم. وثالثها: أن يتفكروا في أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصير كل ذرة من ذرات المخلوقات كالمرآة المجلوة المحاذية لعالم القدس، فإذا نظر العبد إليها انعكس شعاع بصره منها إلى عالم الجلال وهذا المقام مقام لا نهاية له، أما ذكرهم إياه تعالى بجوارحهم، فهو أن تكون جوارحهم مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها، وعلى هذا الوجه سمى الله تعالى الصلاة ذكراً بقوله: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ فصار الأمر بقوله: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ ﴾ متضمناً جميع الطاعات، فلهذا روي عن سعيد بن جبير أنه قال: اذكروني بطاعتي فأجمله حتى يدخل الكل فيه، أما قوله:﴿ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ فلا بد من حمله على ما يليق بالموضع، والذي له تعلق بذلك الثواب والمدح، وإظهار الرضا والإكرام، وإيجاب المنزلة، وكل ذلك داخل تحت قوله: ﴿ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ ثم للناس في هذه الآية عبارات. الأولى: اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي. الثانية: اذكروني بالإجابة والإحسان وهو بمنزلة قوله: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ غافر: ٦٠ وهو قول أبي مسلم قال: أمر الخلق بأن يذكروه راغبين راهبين، وراجين خائفين ويخلصوا الذكر له عن الشركاء، فإذا هم ذكروه بالإخلاص في عبادته وربوبيته ذكرهم بالإحسان والرحمة

والنعمة في العاجلة والآجلة. الثالثة: اذكروني بالثناء والطاعة أذكركم بالثناء والنعمة. الرابعة: اذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة. الخامسة: اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات. السادسة: اذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء. السابعة: اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي. الثامنة: اذكروني بمجاهدتي أذكركم بهدايتي. التاسعة: اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص. العاشرة: اذكروني بالربوبية في الفاتحة أذكركم بالرحمة والعبودية في الخاتمة.

الطباطبائي:

الآيات مترتبة متَّسقة منتظمة في سياقها على ما يعطيه التدبر فيها وهي تنبئ عن جعل الكعبة قبلة للمسلمين فلا يصغى إلى قول من يقول إن فيها تقدماً وتأخراً أو إن فيها ناسخاً ومنسوخاً، وربما رووا فيها شيئاً من الروايات، ولا يعبأ بشيء منها بعد مخالفتها لظاهر الآيات.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾، هذا تمهيداً ثانياً لما سيأمر تعالى به من اتخاذ الكعبة قبلة وتعليم للجواب عمّا سيعترض به السفهاء من الناس وهم اليهود تعصباً لقبلتهم التي هي بيت المقدس ومشركوا العرب الراصدون لكل أمر جديد يحتمل الجدال والخصام، وقد مهد لذلك أولاً بما ذكره الله تعالى من قصص إبراهيم عليه السلام وأنواع كرامته على الله سبحانه وكرامة ابنه إسماعيل ودعوتهما للكعبة ومكة وللنبي والأمة المسلمة وبنائهما البيت والأمر بتطهيره للعبادة، ومن المعلوم أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من أعظم الحوادث الدينية وأهم التشريعات التي قوبل به الناس بعد هجرة النبي إلى المدينة وأخذ الإسلام في تحقيق أصوله ونشر معارفه وبث حقائقه، فما كانت اليهود وغيرهم تسكت وتستريح في مقابل هذا التشريع، لأنهم كانوا يرون أنه

يبطل واحداً من أعظم مفاخرهم الدينية وهو القبلة، واتباع غيرهم لهم فيها وتقدمهم على من دونهم في هذا الشعار الديني، على أن ذلك تقدم باهر في دين المسلمين، لجمعه وجوههم في عباداتهم ومناسكهم الدينية إلى نقطة واحدة يخلصهم من تفرق الوجوه في الظاهر وشتات الكلمة في الباطن واستقبال الكعبة أشد تأثيراً وأقوى من أمثال الطهارة والدعاء وغيرهما في نفوس المسلمين، عند اليهود ومشركي العرب وخاصة عند اليهود، كما يشهد به قصصهم المقتصة في القرآن، فقد كانوا أُمة لا يرون لغير المحسوس من عالم الطبيعة أصالة ولا لغير الحس وقعاً، إذا جاءهم حكم من أحكام الله معنوي قبلوه من غير تكلم عليه، وإذا جاءهم أمر من ربهم صوري متعلق بالمحسوس من الطبيعة كالقتال والهجرة والسجدة وخضوع القول وغيرها قابلوه بالإنكار وقاوموا عليه ودونه أشد المقاومة.

وبالجملة فقد أخبر الله سبحانه عمّا سيعترضون به على تحويل القبلة وعلم رسوله ما ينبغي أن يجابوا ويقطع به قولهم.

أما اعتراضهم: فهو أن التحول عن قبلة شرعها الله سبحانه للماضين من أنبيائه إلى بيت ما كان به شيء من هذا الشرف الذاتي ما وجهه: فإن كان بأمر من الله فإن الله هو الذي جعل بيت المقدس قبلة فكيف ينقض حكمه وينسخ ما شرعه؟ واليهود ما كانت تعتقد النسخ (كما تقدم في آية النسخ) وإن كان بغير أمر الله ففيه الانحراف عن مستقيم الصراط والخروج من الهداية إلى الضلال وهو تعالى وإن لم يذكر في كلامه هذا الاعتراض إلا أن ما أجاب به يلوح ذلك.

وأما الجواب: فهو أن جعل بيت من البيوت كالكعبة، أو بناء من الأبنية أو الأجسام كبيت المقدس، أو الحجر الواقع فيه قبلة ليس لاقتضاء ذاتي منه يستحيل التعدي عنه أو عدم إجابة اقتضائه حتى يكون البيت المقدس في كونه قبلة لا يتغير حكمه ولا يجوز إلغاؤه، بل جميع الأجسام والأبنية

وجميع الجهات التي يمكن أن يتوجه إليه الإنسان في أنها لا تقتضي حكماً ولا يستوجب تشريعاً على السواء وكلها لله يحكم فيها ما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء، وما حكم به من حكم فهو لهداية الناس على حسب ما يريد من صلاحهم وكمالهم الفردي والنوعي، فلا يحكم إلا ليهدي به ولا يهدي إلاَّ إلى ما هو صراط مستقيم إلى كمال القوم وصلاحهم.

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، أراد بهم اليهود والمشركين من العرب ولذلك عبّر عنهم بالناس وإنما سفههم لعدم استقامة فطرتهم وثقوب رأيهم في أمر التشريع، والسفاهة عدم استقامة العقل وتزلزل الرأي.

قوله تعالى: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾، تولية الشيء أو المكان جعله قدام الوجه وأمامه كالاستقبال، قال تعالى: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾، الآية والتولية عن الشيء صرف الوجه عنه كالاستدبار ونحوه، والمعنى ما الذي صرفهم أو صرف وجههم عن القبلة التي كانوا عليها وهو بيت المقدس الذي كان يصلي إليه النبي والمسلمون أيام إقامته بمكة وعدة شهور بعد هجرته إلى المدينة وإنما نسبوا القبلة إلى المسلمين مع أن اليهود أقدم في الصلاة إليها ليكون أوقع في إيجاد التعجب وأوجب للاعتراض، وإنما قيل ما ولاّهم عن قبلتهم ولم يقل ما ولّى النبي والمسلمين لما ذكرنا من الوجه، فلو قيل ما ولّى النبي والمسلمين عن قبلة اليهود لم يكن التعجب واقعاً موقعه وكان الجواب عنه ظاهراً لكل سامع بأدنى تنبه.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، اقتصر من بين الجهات بهاتين لكونهما هما المعنيتين لسائر الجهات الأصلية والفرعية كالشمال والجنوب وما بين كل جهتين من الجهات الأربعة الأصلية، والمشرق والمغرب جهتان إضافيتان تتعينان بشروق الشمس أو النجوم وغروبهما، يعمان جميع نقاط الأرض غير نقطتين موهومتين هما نقطتا الشمال والجنوب الحقيقيتان، ولعلَّ هذا هو الوجه في وضع المشرق والمغرب موضع الجهات.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، تنكير الصراط لأن الصراط يختلف باختلاف الأمم في استعداداتها للهداية إلى الكمال والسعادة.

صراط مستقيم كذلك جعلناكم أمة وسطاً، وقيل إن المعنى ومثل هذا الجعل العجيب جعلناكم أمة وسطاً (وهو كما ترى)، وأما المراد بكونهم أمة وسطاً شهداء على الناس فالوسط هو المتخلل بين الطرفين لا إلى هذا الطرف ولا إلى ذاك الطرف، وهذه الأمة بالنسبة إلى الناس ـ وهم أهل الكتاب والمشركون ـ على هذا الوصف فإن بعضهم ـ وهم المشركون والوثنيون ـ إلى تقوية جانب الجسم محضاً لا يريدون إلاَّ الحياة الدنيا والاستكمال بملاذها وزخارفها وزينتها، لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، ولا يعبؤون بشيء من الفضائل المعنوية والروحية، وبعضهم كالنصارى إلى تقوية جانب الروح لا يدعون إلاَّ إلى الرهبانية ورفض الكمالات الجسمية التي أظهرها الله تعالى في مظاهر هذه النشأة المادية لتكون ذريعة كاملة إلى نيل ما خلق لأجله الإنسان، فهؤلاء أصحاب الروح أبطلوا النتيجة بإبطال سببها وأولئك أصحاب الجسم أبطلوا النتيجة بالوقوف على سببها والجمود عليها، لكن الله سبحانه جعل هذه الأمة وسطاً بأن جعل لهم ديناً يهدي منتحليه إلى سواء الطريق وسط الطرفين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل يقوي كلا من الجانبين ـ جانب الجسم وجانب الروح ـ على ما يليق به ويندب إلى جمع الفضيلتين، فإن الإنسان مجموع الروح والجسم لا روح محضاً ولا جسم محضاً ومحتاج في حياته السعيدة إلى جمع كلا الكمالين والسعادتين المادية والمعنوية، فهذه الأمة هي الوسط العدل الذي به يقاس ويوزن كل من طرفي الإفراط والتفريط فهي الشهيدة على سائر الناس الواقعة في الأطراف، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو المثال الأكمل من هذه الأمة ـ هو شهيد على نفس الأمة فهو صلى الله عليه وآله وسلم ميزان يوزن به حال الآحاد من الأمة، والأمة ميزان يوزن به حال الناس ومرجع يرجع إليه طرفا الإفراط والتفريط، هذا ما

قرره بعض المفسرين في معنى الآية، وهو في نفسه معنى صحيح لا يخلو عن دقة إلا أنه غير منطبق على لفظ الآية فإن كون الأمة وسطاً إنما يصحح كونها مرجعاً يرجع إليه الطرفان، وميزاناً يوزن به الجانبان لا كونها شاهدة تشهد على الطرفين أو يشاهد الطرفين، فلا تناسب بين الوسطية بذاك المعنى والشهادة، وهو ظاهر على أنه لا وجه حينئذ للتعرض بكون رسول الله شهيداً على الأمة، إذ لا يترتب شهادة الرسول على الأمة على جعل الأمة وسطاً، كما يترتب الغاية على المُغيَّي والغرض على ذيه.

على أن هذه الشهادة المذكورة في الآية، حقيقة من الحقائق القرآنية تكرر ذكرها في كلامه سبحانه، واللائح من موارد ذكرها معنى غير هذا المعنى، قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ النساء:٤١، وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ النحل: ٨٤ ﴿ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِايْءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾، الزمر: ٦٩ . ، والشهادة فيها مطلقة، وظاهر الجميع على إطلاقها هو الشهادة على أعمال الأمم، وعلى تبليغ الرسل أيضاً، كما يومي إليه قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الإعراف: ٦، وهذه الشهادة وإن كانت في الآخرة يوم القيامة لكن تحملها في الدنيا على ما يعطيه قوله تعالى ـ حكاية عن عيسى عليه السلام ـ ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ المائدة: ١١٧ وقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾النساء: ١٥٩، ومن الواضح أن هذه الحواس العادية التي فينا، والقوى المتعلقة بها منا لا تتحمل إلا صور الأفعال والأعمال فقط، وذلك التحمل أيضاً إنما يكون في شيء يكون موجوداً حاضراً عند الحس لا معدوماً ولا غائباً عنه وأما حقائق الأعمال والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخسران، وبالجملة كل خفي عن الحس ومستبطن عند الإنسان ـ وهي التي تكسب القلوب، وعليه يدور حساب رب العالمين ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾

الطارق: س٩ كما قال تعالى ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، فهي مما ليس في وسع الإنسان إحصاؤها والإحاطة بها وتشخيصها من الحاضرين فضلاً عن الغائبين إلا رجل يتولى الله أمره ويكشف ذلك له بيده، ويمكن أن يستفاد ذلك من قوله تعالى ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾الزخرف: ٨٦، فإن عيسى داخل في المستثنى في هذه الآية قطعاً ـ وقد شهد الله تعالى في حقه بأنه من الشهداء ـ كما مر في الآيتين السابقتين، فهو شهيد بالحق وعالم بالحقيقة.

والحاصل أن هذه الشهادة ليست هي كون الأمة على دين جامع للكمال الجسماني والروحاني فإن ذلك على أنه ليس معنى الشهادة خلاف ظاهر الآيات الشريفة.

بل هي تحمل حقائق أعمال الناس في الدنيا من سعادة أو شقاء، ورد وقبول، وانقياد وتمرد، وأداء ذلك في الآخرة يوم يستشهد الله من كل شيء حتى من أعضاء الإنسان يوم يقول الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً.

ومن المعلوم أن هذه الكرامة ليست تنالها جميع الأمة، إذ ليست إلاَّ كرامة خاصة للأولياء الطاهرين منهم، وأما من دونهم من المتوسطين في السعادة، والعدول من أهل الإيمان فليس لهم ذلك، فضلاً عن الأجلاف الجافية، والفراعنة الطاغية من الأمة، وستعرف في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩،إن أقل ما يتصف به الشهداء ـ وهم شهداء الأعمال ـ أنهم تحت ولاية الله ونعمته وأصحاب الصراط المستقيم، وقد مر إجمالاً في قوله تعالى ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

فالمراد بكون الأمة شهيدة أن هذه الشهادة فيهم، كما أن المراد بكون

بني إسرائيل فضّلوا على العالمين، أن هذه الفضيلة فيهم من غير أن يتصف به كل واحد منهم، بل نسب وصف البعض إلى الكل لكون البعض فيه ومنه، فكون الأمة شهيدة هو أن فيهم من يشهد على الناس ويشهد الرسول عليهم.

فإن قلت: قوله تعالى ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الحديد:١٩، يدل على كون عامة المؤمنين شهداء.

قلت قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، يدل على أنه تعالى سيلحقهم بالشهداء يوم القيامة، ولم ينالوه في الدنيا، نظير ذلك قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، على أن الآية مطلقة تدل على كون جميع المؤمنين من جميع الأمم شهداء عند الله من غير اختصاص بهذه الأمة فلا ينفع المستدل شيئاً.

فإن قلت: جعل هذه الأمة أمة وسطاً بهذا المعنى لا يستتبع كونهم أو كون بعضهم شهداء على الأعمال ولا كون الرسول شهيداً على هؤلاء الشهداء فالإشكال وارد على هذا التقريب كما كان وارداً على التقريب السابق.

قلت: معنى الشهادة غاية متفرعة في الآية على جعل الأمة وسطاً فلا محالة تكون الوسطية معنى يستتبع الشهادة والشهداء، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾الحج:٧٧-٧٨، جعل تعالى كون الرسول شهيداً عليهم وكونهم شهداء على الناس غاية متفرعة على الاجتباء ونفي الحرج عنهم في الدين ثم عرف الدين بأنه هو الملة التي كانت لأبيكم إبراهيم الذي هو سماكم المسلمين من قبل، وذلك حين دعا لكم ربه وقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ فاستجاب الله دعوته وجعلكم

مسلمين، تسلمون له الحكم والأمر من غير عصيان واستنكاف، ولذلك ارتفع الحرج عنكم في الدين، فلا يشق عليكم شيء منه ولا يحرج، فأنتم المجتبون المهديون إلى الصراط، المسلمون لربهم الحكم والأمر، وقد جعلناكم كذلك ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، أي تتوسطوا بين الرسول وبين الناس فتتصلوا من جهة إليهم، وعند ذلك يتحقق مصداق دعائه عليه السلام فيكم وفي الرسول حيث قال ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾، فتكونون أمة مسلمة أودع الرسول في قلوبكم علم الكتاب والحكمة، ومزكين بتزكيته، والتزكية التطهير من قذرات القلوب، وتخليصها للعبودية، وهو معنى الإسلام ـ كما مر بيانه ـ فتكونون مسلمين خالصين في عبوديتكم، وللرسول في ذلك القدم الأول والهداية والتربية، فله التقدم على الجميع، ولكم التوسط باللحوق به، والناس في جانب، وفي أول الآية وآخرها قرائن تدل على المعنى الذي استفدناه منها غير خفية على المتدبر فيها سنبينها في محله إن شاء الله.

فقد تبين بما قدمناه: أولاً، أن كون الأمة وسطاً مستتبع للغايتين جميعاً، وأن قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ الآية جميعاً لازم كونهم وسطاً.

وثانياً: أن كون الأمة وسطاً إنما هو بتخللها بين الرسول وبين الناس، لا بتخللها بين طرفي الإفراط والتفريط، وجانبي تقوية الروح وتقوية الجسم في الناس.

وثالثاً: أن الآية بحسب المعنى مرتبطة بآيات دعوة إبراهيم عليه السلام وأن الشهادة من شؤون الأمة المسلمة.

واعلم: أن الشهادة على الأعمال على ما يفيده كلامه تعالى لا يختص بالشهداء من الناس، بل كل ما له تعلّق ما بالعمل كالملائكة والزمان والمكان والدين والكتاب والجوارح والحواس والقلب فله فيه شهادة.

ويستفاد منها أن الذي يحضر منها يوم القيامة هو الذي في هذه النشأة الدنيوية وأن لها نحواً من الحياة الشاعرة بها، تتحمل بها خصوصيات الأعمال، وترتسم هي فيها، وليس من اللازم أن تكون الحياة التي في كل شيء، سنخاً واحداً كحياة جنس الحيوان، ذات خواص وآثار كخواصها وآثارها، حتى تدفعه الضرورة فلا دليل على انحصار أنحاء الحياة في نحوٍ واحد، هذا إجمال القول في هذا المقام وأما تفصيل القول في كل واحد واحد منها فموكول إلى محله اللائق به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، المراد بقوله لنعلم: إما علم الرسل والأنبياء مثلاً، لأن العظماء يتكلمون عنهم وعن أتباعهم، كقول الأمير، قتلنا فلاناً وسجنا فلاناً، وإنما قتله وسجنه أتباعه لنفسه، وإما العلم العيني الفعلي منه تعالى الحاصل مع الخلقة والإيجاد، دون العلم قبل الإيجاد.

والانقلاب على العقبين كناية عن الإعراض، فإن الإنسان ـ وهو منتصب على عقبيه ـ إذا انقلب من جهة، إلى جهة انقلب على عقبيه، فجعل كناية عن الإعراض نظير قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، وظاهر الآية أنه دفع لما يختلج في صدور المؤمنين: من تغيير القبلة ونسخها، ومن جهة الصلوات التي صلوها إلى القبلة، ما شأنها!

ويظهر من ذلك أن المراد بالقبلة التي كان رسول الله عليها، هو بيت المقدس الكعبة، فلا دليل على جعل بيت المقدس قبلة مرتين، وجعل الكعبة قبلة مرتين، إذ لو كان المراد من القبلة في الآية الكعبة كان لازم ذلك ما ذكر.

وبالجملة كان من المترقب أن يختلج في صدور المؤمنين: أولاً، أنه لما كان من المقدر أن يستقر القبلة بالآخرة على الكعبة فما هو السبب، أولاً: في جعل بيت المقدس قبلة؟ فبيّن سبحانه أن هذه الأحكام والتشريعات ليست

إلاَّ لأجل مصالح تعود إلى تربية الناس وتكميلهم، وتمحيص المؤمنين من غيرهم، وتمييز المطيعين من العاصين، والمنقادين من المتمردين، والسبب الداعي إلى جعل القبلة السابقة في حقكم أيضاً هذا السبب بعينه، فالمراد بقوله إلاَّ لنعلم من يتبع الرسول، إلاَّ لنميز من يتبعك، والعدول من لفظ الخطاب إلى الغيبة لدخالة صفة الرسالة في هذا التميز، والمراد بجعل القبلة السابقة جعلها في حق المسلمين، وإن كان المراد أصل جعل بيت المقدس قبلة، فالمراد مطلق الرسول، والكلام على رسله من غير التفات، غير أنه بعيد من الكلام بعض البعد.

وثانياً: أن الصلوات التي كان المسلمون صلوها إلى بيت المقدس كيف حالها، وقد صليت إلى غير القبلة؟ والجواب: أن القبلة قبلة ما لم تنسخ، وأن الله سبحانه إذا نسخ حكماً رفعه من حين النسخ، لا من أصله، لرأفته ورحمته بالمؤمنين، وهذا ما أشار إليه بقوله:﴿ ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. والفرق بين الرأفة والرحمة، بعد اشتراكهما في أصل المعنى، أن الرأفة يختص بالمبتلى المفتاق، والرحمة أعم.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ الآية، تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول آية القبلة ـ وهي هذه الآية ـ كان يقلّب وجهه في آفاق السماء، وأن ذلك كان انتظاراً منه، أو توقعاً لنزول الوحي في أمر القبلة، لما كان يحب أن يكرّمه الله تعالى بقبلة تختص به، لا أنه كان لا يرتضي بيت المقدس قبلة، وحاشا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ ، فإن الرضا بشيء لا يوجب السخط بخلافه بل اليهود على ما في الروايات الواردة في شأن نزول الآية كانوا يعيّرون المسلمين في تبعية قبلتهم، ويتفاخرون بذلك عليهم، فحزن رسول الله ذلك، فخرج في سواد الليل يقلب وجهه إلى السماء ينتظر الوحي من الله سبحانه، وكشف همه فنزلت الآية، ولو نزلت

على البقاء بالقبلة السابقة لكانت حجة له صلى الله عليه وآله وسلم على اليهود، وليس ولم يكن لرسول الله ولا للمسلمين عار في استقبال قبلتهم، إذ ليس للعبد إلا الإطاعة والقبول، لكن نزلت بقبلة جديدة، فقطع تعييرهم وتفاخرهم، مضافاً إلى تعيين التكليف، فكانت حجة ورضى.

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ ـ الشطر البعض، وشطر المسجد الحرام هو الكعبة، وفي قوله تعالى ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ دون أن يقال: فول وجهك الكعبة، أو يقال: فول وجهك البيت الحرام، محاذاة للحكم في القبلة السابقة، فإنها كانت شطر المسجد الأقصى، وهي الصخرة المعروفة هناك، فبدلت من شطر المسجد الحرام ـ وهي الكعبة ـ على أن إضافة الشطر إلى المسجد، وتوصيف المسجد بالحرام يعطي مزايا للحكم، تفوت لو قيل: الكعبة أو البيت الحرام.

وتخصيص رسول الله بالحكم أولاً بقوله فولّ وجهك، ثم تعميم الحكم له ولغيره من المؤمنين بقوله: وحيث ما كنتم يؤيد أن القبلة حولت، ورسول الله قائم يصلي في المسجد ـ والمسلمون معه ـ فاختص الأمر به، أولاً في شخص صلاته ثم عقب الحكم العام الشامل له ولغيره، ولجميع الأوقات والأمكنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وذلك لاشتمال كتابهم على صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو كون قبلة هذا النبي الصادق هو شطر المسجد الحرام، وأياً ما كان فقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يدل على اشتمال كتابهم على حقية هذا التشريع، إما مطابقة أو تضمناً، وما الله بغافل عما يعملون من كتمان الحق، واحتكار ما عندهم من العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾، تقريع لهم بالعناد واللجاج، وأن إباءهم عن القبول ليس لخفاء الحق عليهم، وعدم تبينه لهم، فإنهم عالمون بأنه حق علماً لا يخالطه شك، بل الباعث لهم على بث

الاعتراض وإثارة الفتنة عنادهم في الدين وجحودهم للحق، فلا ينفعهم حجة، ولا يقطع إنكارهم آية، فلو أتيتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك لعنادهم وجحودهم، وما أنت بتابع قبلتهم، لأنك على بيّنة من ربك، ويمكن أن يكون قوله: وما أنت نهياً في صورة خبر، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وهم اليهود يستقبلون صخرة بيت المقدس أينما كانوا، والنصارى يستقبلون المشرق أينما كانوا، فلا هذا البعض يقبل قبلة ذاك البعض، ولا ذاك يقبل قبلة هذا اتباعاً للهوى.

قوله تعالى:﴿ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾، تهديد للنبي، والمعنى متوجه إلى أمته، وإشارة إلى أنهم في هذا التمرد إنما يتبعون أهواءهم وأنهم بذلك ظالمون.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ ﴾، الضمير في قوله يعرفونه، راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون الكتاب، والدليل عليه تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الأبناء، فإن ذلك إنما يحسن في الإنسان، ولا يقال في الكتاب، أن فلاناً يعرفه أو يعلمه، كما يعرف ابنه، على أن سياق الكلام ـ وهو في رسول الله، وما أُوحي إليه من أمر القبلة، أجنبي عن موضوع الكتاب الذي أوتيه أهل الكتاب، فالمعنى أن أهل الكتاب يعرفون رسول الله بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبناءهم، ﴿ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَۖ ﴾.

وعلى هذا ففي الكلام التفات من الحضور إلى الغيبة في قوله ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾، فقد أخذ رسول الله غائباً، ووجه الخطاب إلى المؤمنين بعدما كان صلى الله عليه وآله وسلم حاضراً، والخطاب معه، وذلك لتوضيح: أن أمره صلى الله عليه وآله وسلم واضح ظاهر عند أهل الكتاب، ومثل هذا النظم كمثل كلام من يكلم جماعة، لكنه يخص واحداً منهم بالمخاطبة إظهاراً لفضله، فيخاطبه ويسمع غيره، فإذا بلغ إلى ما يخص شخص المخاطب من الفضل والكرامة،

عدل عن خطابه إلى مخاطبة الجماعة، ثم بعد الفراغ عن بيان فضله عدل ثانياً إلى ما كان فيه أولاً من توجيه الخطاب إليه وبهذا يظهر نكتة الالتفات.

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾، تأكيد للبيان السابق وتشديد في النهي عن الامتراء، وهو الشك والارتياب، وظاهر الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه للأمة.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾، الوجهة ما يتوجه إليه كالقبلة، وهذا رجوع إلى تلخيص البيان السابق، وتبديل له من بيان آخر يهدي الناس إلى ترك تعقيب أمر القبلة، والإكثار من الكلام فيه، والمعنى أن كل قوم فلهم قبلة مشرعة على حسب ما يقتضيه مصالحهم وليس حكماً تكوينياً ذاتياً لا يقبل التغيير والتحويل، فلا يهم لكم البحث والمشاجرة، فيه فاتركوا ذلك واستبقوا الخيرات وسارعوا إليها بالاستباق، فإن الله سيجمعكم إلى يوم لا ريب فيه، ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

واعلم أن الآية كما أنها قابلة الانطباق على أمر القبلة لوقوعها بين آياتها كذلك تقبل الانطباق على أمر التكوين، وفيها إشارة إلى القدر والقضاء، وجعل الأحكام والآداب لتحقيقها وسيجيئ تمام بيانه فيما يخص به من المقام إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، ذكر بعض المفسرين أن المعنى ومن أي مكان خرجت، وفي أي بقعة حللت فولَ وجهك، وذكر بعضهم أنَّ المعنى ومن حيث خرجت من البلاد، ويمكن أن يكون المراد بقوله ومن حيث خرجت؛ مكة التي خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها كما قال تعالى ﴿مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ ويكون المعنى أن استقبال البيت حكم ثابت لك في مكة وغيرها من البلاد والبقاع، وفي قوله: ﴿ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ تأكيد وتشديد.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾، تكرار الجملة الأولى بلفظها لعله للدلالة على ثبوت حكمها على أي حال، فهو كقول القائل، اتق الله إذا قمت واتق الله إذا قعدت، واتق الله إذا نطقت، واتّق الله إذا سكت، يريد: التزم التقوى عند كل واحدة من هذه الأحوال ولتكن معك، ولو قيل: اتّق الله إذا قمت وإذا قعدت وإذا نطقت وإذا سكت فاتت هذه النكتة، والمعنى استقبل شطر المسجد الحرام من التي خرجت منها وحيث ما كنتم من الأرض فولوا وجوهكم شطره.

قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ بيان لفوائد ثلاث في هذا الحكم الذي فيه أشد التأكيد على ملازمة الامتثال والتحذّر عن الخلاف.

إحداها: أن اليهود كانوا يعلمون من كتبهم أن النبي الموعود تكون قبلته الكعبة دون بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية، وفي ترك هذا الحكم الحجة لليهود على المسلمين بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس هو النبي الموعود لكن التزام هذا الحكم والعمل به يقطع حجتهم إلا الذين ظلموا منهم، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا منهم باتباع الأهواء لا ينقطعون بذلك فلا تخشوهم لأنهم ظالمون باتِّباع الأهواء، والله لا يهدي القوم الظالمين واخشوني.

وثانيتها: أن ملازمة هذا الحكم يسوق المسلمين إلى تمام النعمة عليهم بكمال دينهم، وسنبيِّن معنى تمام النعمة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ المائدة:٣.

وثالثتها: رجاء الاهتداء إلى الصراط المستقيم، وقد مرَّ معنى الاهتداء في الكلام على معنى قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

وذكر بعض المفسّرين أن اشتمال هذه الآية ـ وهي آية ـ تحويل القبلة ـ على قوله: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ المائدة:٦، مع

اشتمال قوله تعالى في سورة الفتح في ذكر فتح مكة على هاتين الجملتين، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ الفتح: ١- ٢ يدل على كونها مشتملة على البشارة بفتح مكة.

بيان ذلك أن الكعبة كانت مشغولة في صدر الإسلام بأصنام المشركين وأوثانهم وكان السلطان معهم، والإسلام لم يقو بعد بحيث يظهر قهره وقدرته، فهدى الله رسوله إلى استقبال بيت المقدس، لكونه قبلة لليهود، الذين هم أقرب في دينهم من المشركين إلى الإسلام، ثم لما ظهر أمر الإسلام بهجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وقرب زمان الفتح وتوقع تطهير البيت من أرجاس الأصنام جاء الأمر بتحويل القبلة وهي النعمة العظيمة التي اختص به المسلمون، ووعد في آية التحويل إتمام النعمة والهداية وهو خلوص الكعبة من أدناس الأوثان، وتعينها لأن تكون قبلة يعبد الله إليها، ويكون المسلمون هم المختصون بها، وهي المختصة بهم، فهي بشارة بفتح مكة، ثم لما ذكر فتح مكة حين فتحت أشار إلى ما وعدهم به من إتمام النعمة والبشارة بقوله ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الفتح: ٢ الآية.

وهذا الكلام وإن كان بظاهره وجيهاً لكنه خالٍ عن التدبر، فإن ظاهر الآيات لا يساعد عليه، إذ الدال على وعد إتمام النعمة في هذه الآية: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، الآية إنما هو لام الغاية، وآية سورة الفتح التي أخذها إنجازاً لهذا الوعد ومصداقاً لهذه البشارة أعني قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الفتح: ٢، مشتملة على هذه اللام بعينها، فالآيتان جميعاً مشتملتان على الوعد الجميل بإتمام النعمة، على أن آية الحج مشتملة على وعد إتمام النعمة لجميع المسلمين، وآية الفتح على ذلك لرسول الله خاصة فالسياق في الآيتين مختلف.

ولو كان هناك آية تحكي عن إنجاز الوعد الذي تشتمل عليه الآيتان لكان هو قوله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ المائدة:٣، وسيجيئ الكلام في معنى النعمة وتشخيص هذه النعمة التي يمتن بها الله سبحانه في الآية.

ونظير هاتين الآيتين في الاشتمال على عدة إتمام النعمة قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، وسيجيئ إن شاء الله شيء من الكلام المناسب لهذا المقام في ذيل هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾، ظاهر الآية أن الكاف للتشبيه وما مصدرية، فالمعنى: أنعمنا عليكم بأن جعلنا لكم البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا له بما دعا من الخيرات والبركات قبلة كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويزكّيكم مستجيبين لدعوة إبراهيم، إذ قال هو وابنه إسماعيل ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، وفيهم امتنان عليهم بالإرسال كالامتنان بجعل الكعبة قبلة، ومن هنا يظهر أن المخاطب بقوله فيكم رسولاً منكم، هو الأمة المسلمة، وهو أولياء الدين من الأمة خاصة بحسب الحقيقة، والمسلمون جميعاً من آل إسماعيل ـ وهم عرب مضر ـ بحسب الظاهر، وجميع العرب بل جميع المسلمين بحسب الحكم.

قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، ظاهره آيات القرآن لمكان قوله يتلو، فإن العناية في التلاوة إلى اللفظ دون المعنى، والتزكية هي التطهير، وهو إزالة الأدناس والقذارات، فيشمل إزالة الاعتقادات الفاسدة كالشرك والكفر، وإزالة الملكات الرذيلة من الأخلاق كالكبر والشحّ، وإزالة الأعمال والأفعال الشنيعة كالقتل والزنا وشرب الخمر وتعليم الكتاب والحكمة، وتعليم ما لم يكونوا يعلمونه يشمل جميع المعارف الأصلية والفرعية.

وفي بحثه الروائي يقول:

في المجمع، عن القمي: في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ الآية عن الصادق عليه السلام قال: تحولت القبلة إلى الكعبة بعدما صلّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلَّى إلى بيت المقدس سبعة أشهر، قال ثم وجهه الله إلى مكة، وذلك أن اليهود كانوا يعيّرون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقولون: أنت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا، فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك غماً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء، ينتظر من الله في ذلك أمراً، فلما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم، وقد صلَّى من الظهر ركعتين فنزل جبرئيل فأخذ بعضديه وحوّله إلى الكعبة وأنزل عليه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ فكان قد صلَّى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة، فقالت اليهود والسفهاء: ما وليهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟.

أقول: والروايات الواردة من طرق العامة والخاصة كثيرة مودعة في جوامع الحديث قريبة المضامين، وقد اختلف في تاريخ الواقعة، وأكثرها ـ وهو الأصح ـ أنها كانت في رجب السنة الثانية من الهجرة الشهر السابع عشر منها وسيجيئ بعض ما يتعلق بالمقام في بحث على حدة إن شاء الله.

وعن طرق أهل السنّة والجماعة: في شهادة هذه الأمة على الناس، وشهادة النبي عليهم أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء فيطالب الله الأنبياء بالبيّنة على أنهم قد بلغوا ـ وهو أعلم ـ فيؤتى بأمة محمد، فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويسأل عن حال أُمته فيزكّيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ

إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ النساء: ٤١ ..

أقول: ما يشتمل عليه هذا الخبر ـ وهو مؤيد بأخبار أُخر نقلها السيوطي في الدرّ المنثور، وغيره ـ من تزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته، وتعديله إيّاهم، لعله يراد به تعديله لبعضهم دون جميعهم، وإلاَّ فهو مدفوع بالضرورة الثابتة من الكتاب والسنّة، وكيف تصحح أو تصوِّب هذه الفجائع التي لا تكاد، توجد ولا أنموذجة منها في واحدة من الأمم الماضية؟ وكيف يزكّي ويعدل فراعنة هذه الأمة وطواغيتها؟ فهل ذلك إلاَّ طعن في الدين الحنيف ولعب بحقائق هذه الملّة البيضاء، على أن الحديث مشتمل على إمضاء الشهادة النظرية دون شهادة التحمل.

وفي المناقب، في هذا المعنى عن الباقر عليه السلام: لا يكون شهداء على الناس إلاَّ الأئمة والرسل، وأما الأمة فغير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته على حزمة بقل.

وفي تفسير العيَّاشي عن الصادق عليه السلام: في قوله تعالى:﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ الآية، فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة؟ ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلا! لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١١٠ .

وفي قرب الإسناد، عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: مما أعطى الله أمتي وفضلهم على سائر الأمم أعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلَّا نبيٌّ ـ إلى أن قال ـ وكان إذا بعث نبياً جعله شهيداً على قومه، وإن الله تبارك وتعالى جعل أمتي شهيداً على الخلق، حيث يقول: ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الحج: ١٧٨، الحديث.

أقول: والحديث لا ينافي ما مر، فإن المراد بالأمة، الأمة المسلمة التي

وجبت لها دعوة إبراهيم.

وفي تفسير العياشي عن أمير المؤمنين عليه السلام: في حديث يصف فيه يوم القيامة، قال عليه السلام: يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق، فلا يتكلم أحد إلَّا من أذن له الرَّحمن وقال صواباً، فيقام الرسول فيسأل فذلك قوله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ـ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً، وهو الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرسل.

وفي التهذيب، عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام، قال: قلت له أمره أن يصلي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ الآية.

أقول: مقتضى الحديث كون قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وصفاً للقبلة، والمراد بها بيت المقدس، وأنها القبلة التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليها، وهو الذي يؤيده سياق الآيات كما تقدم.

ومن هنا يتأيد ما في بعض الأخبار عن العسكري عليه السلام: أن هوى أهل مكة كان في الكعبة فأراد الله أن يبيّن متَّبع محمد من مخالفيه باتباع القبلة التي كرهها، ومحمد يأمر بها، ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها والتوجّه إلى الكعبة ليبيّن من يتبع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيما يكرهه فهو مصدّقه وموافقه الحديث، وبه يتضح أيضاً فساد ما قيل: إن قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ مفعول ثانٍ لجعلنا، والمعنى: وما جعلنا القبلة، هي الكعبة التي كنت عليها قبل بيت المقدس، واستدل عليها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، وهو فاسد، ظهر فساده مما تقدم.

وفي تفسير العياشي، عن الزبيري عن الصادق عليه السلام قال: قلت له:

ألا تخبرني عن الإيمان؟ أقول هو وعمل؟ أم قولٌ بلا عمل؟ فقال الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل، مفروض من الله، مبين في كتابه، واضح نوره ثابت حجته، يشهد له بها الكتاب ويدعو إليه، ولما أن صرف الله نبيه إلى الكعبة عن بيت المقدس قال المسلمون للنبي: أرأيت صلاتنا التي كنا نصلي إلى بيت المقدس، ما حالنا فيها وما حال من مضى من أمواتنا، وهم كانوا يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾، فسمى الصلاة إيماناً، فمن اتّقى الله حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه بما فرض الله عليه لقي الله مستكملاً لإيمانه من أهل الجنة، ومن خان في شيء منها أو تعدى ما أمر الله فيها لقي الله ناقص الإيمان.

أقول: ورواه الكليني أيضاً، واشتماله على نزول قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ الآية، بعد تغيير القبلة لا ينافي ما تقدم من البيان.

وفي الفقيه،: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلَّى إلى بيت المقدس ثلاث عشرة سنة بمكة وتسعة عشر شهراً بالمدينة، ثم عيّرته اليهود فقالوا إنك تابع لقبلتنا، فاغتمّ لذلك غماً شديداً، فلما كان في بعض الليل خرج يقلّب وجهه في آفاق السماء، فلما أصبح صلَّى الغداة، فلما صلَّى من الظهر ركعتين جاء جبرئيل فقال له: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ الآية، ثم أخذ بيد النبي فحوّل وجهه إلى الكعبة، وحول من خلفه وجوههم حتى قام الرجال مقام النساء والنساء مقام الرجال، فكان أول صلاته إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة فبلغ الخبر مسجداً بالمدينة وقد صلَّى أهله من العصر ركعتين فحولوا نحو القبلة، فكان أول صلاتهم إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

أقول: وروى القمي نحواً من ذلك، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

كان في مسجد بني سالم.

وفي تفسير العياشي، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، قال: استقبل القبلة، ولا تقلب وجهك عن القبلة فتفسد صلاتك، فإن الله يقول لنبيه في الفريضة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

أقول: والأخبار في نزول الآية في الفريضة واختصاصها بها كثيرة مستفيضة.

وفي تفسير القمي، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ الآية، قال: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني يعرفون رسول الله كما يعرفون أبناءهم لأن الله عز وجل قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد وصفة أصحابه ومهاجرته، وهو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾الفتح:٢٩، وهذه صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة وصفة أصحابه، فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

أقول: وروى نحواً منه في الكافي، عن علي عليه السلام.

وفي أخبار كثيرة من طرق الشيعة: أن قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾ الآية في أصحاب القائم، وفي بعضها أنه من التطبيق والجري.

وفي الحديث من طرق العامة: في قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، عن علي عليه السلام تمام النعمة الموت على الإسلام.

وفي الحديث، من طرقهم أيضاً: تمام النعمة دخول الجنة

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

لما امتن الله تعالى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين،

بإرسال النبي الكريم منهم إليهم نعمة لا تقدر بقدر ومنحة على منحة ـ وهو ذكر منه لهم ـ إذ لم ينسهم في هدايتهم إلى مستقيم الصراط، وسوقهم إلى أقصى الكمال، وزيادة على ذلك، وهو جعل القبلة التي فيها كمال دينهم، وتوحيد عبادتهم، وتقويم فضيلتهم الدينية والاجتماعية، فرّع على ذلك دعوتهم إلى ذكره وشكره، ليذكرهم بنعمته على ذكرهم إيّاه بعبوديته وطاعته، ويزيدهم على شكرهم لنعمته وعدم كفرانهم، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾.الكهف:٢٤ وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾،إبراهيم: ٧ والآيتان جميعاً نازلتان قبل آيات القبلة من سورة البقرة.

ثم إن الذكر ربما قابل الغفلة كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾. وهي انتفاء العلم بالعلم، مع وجود أصل العلم، فالذكر خلافه، وهو العلم بالعلم، وربما قابل النسيان وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، فالذكر خلافه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الآية. وهو حينئذٍ كالنسيان معنى ذو آثار وخواص تتفرع عليه، ولذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقق فيها آثارهما وإن لم تتحقق أنفسهما، فإنك إذا لم تنصر صديقك ـ وأنت تعلم حاجته إلى نصرك ـ فقد نسيته، والحال أنك تذكره، وكذلك الذكر.

والظاهر أن إطلاق الذكر على الذكر اللفظي من هذا القبيل، فإن التكلم عن الشيء من آثار ذكره قلباً، قال تعالى: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً﴾، ونظائره كثيرة، ولو كان الذكر اللفظي أيضاً ذكراً حقيقة فهو من مراتب الذكر، لأنه مقصور عليه ومنحصر فيه، وبالجملة: الذكر له مراتب كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾، الرعد: ٢٨وقال ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾، فالشدة إنما يتصف به المعنى دون اللفظ، وقال تعالى:

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾. وذيل هذه الآية تدل على الأمر برجاء ما هو أعلى منزلة مما هو فيه، فيؤول المعنى إلى أنك إذا تنزلت من مرتبة من ذكره إلى مرتبة هي دونها، وهو النسيان، فاذكر ربك وارج بذلك ما هو أقرب طريقاً وأعلى منزلة، فينتج أن الذكر القلبي ذو مراتب في نفسه، وبذلك يتبين صحة قول القائل: إن الذكر حضور المعنى عند النفس، فإن الحضور ذو مراتب.

ولو كان لقوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ وهو فعل متعلق بياء المتكلم حقيقة من دون تجوز أفاد ذلك أن للإنسان سنخاً آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذي هو حصول صورة المعلوم ومفهومه عند العالم، إذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد وتوصيف للمعلوم من العالم، وقد تقدست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾، وسيجيئ بعض ما يتعلق بالمقام في الكلام على الآيتين إن شاء الله.

وفي بحثه الروائي يقول:

تكاثرت الأخبار في فضل الذكر من طرق العامة والخاصة، فقد روي بطرق مختلفة: أن ذكر الله حسن على كل حال.

وفي عدة الداعي قال: وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج على أصحابه، فقال: ارتعوا في رياض الجنة، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه، واعلموا: أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى، فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم

والإحسان والراحة والرضوان.

وفي المحاسن، ودعوات الراوندي، عن الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بذكري عن مسألتي، أعطيه أفضل ما أعطي من سألني.

وفي المعاني، عن الحسين البزاز قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام ألا أحدثك بأشد ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كل موطن، أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن، إذا هجمت على طاعته أو معصيته.

أقول: وهذا المعنى مرويٌّ بطرق كثيرة عن النبي، وأهل بيته عليهم السلام، وفي بعضها وهو قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِن الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الآية.

وفي عدة الداعي، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال سبحانه: إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو حلّت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال. وفي المحاسن، عن الصادق عليه السلام قال: قال الله تعالى: ابن آدم اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، ابن آدم اذكرني في خلاء أذكرك في خلاء، اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملأك، وقال: ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلَّا ذكره الله في ملأ من الملائكة.

أقول: وقد روي هذا المعنى بطرق كثيرة في كتب الفريقين.

وفي الدر المنثور، أخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

من أعطي أربعاً أُعطي أربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله من أعطى الذكر ذكره الله، لأن الله يقول: اذكروني أذكركم، ومن أعطى الدعاء أُعطي الإجابة، لأن الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ومن أعطي الشكر أُعطي الزيادة، لأن الله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ومن أعطي الاستغفار أعطي المغفرة لأن الله يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾.

وفي الدر المنثور، أيضاً أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن أبي عمران، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أطاع الله فقد ذكر الله، وإن قلَّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن.

أقول: في الحديث إشارة إلى أن المعصية لا تتحقق من العبد إلا بالغفلة والنسيان، فإن الإنسان لو ذكر ما حقيقة معصيته وما لها من الأثر لم يقدم على معصيته، حتى أن من يعصي الله ولا يبالي إذا ذكر عند ذلك بالله، ولا يعتني بمقام ربه هو طاغ جاهل بمقام ربه وعلو كبريائه وكيفية إحاطته، وإلى ذلك تشير أيضاً رواية أخرى، رواها الدر المنثور، عن أبي هند الداري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الله: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ومن ذكرني ـ وهو مطيع ـ فحق عليَّ أن أذكره بمغفرتي، ومن ذكرني وهو عاصٍ فحق عليَّ أن أذكره بمقت، الحديث. وما اشتمل عليه هذا الحديث من الذكر عند المعصية هو الذي تسميه الآية وسائر الأخبار بالنسيان لعدم ترتب آثار الذكر عليه، وللكلام بقايا سيجيئ شطر منها.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول

أيضاً ولله الحمد فقد أجمع المفسرون على مضمون معنى الآيات الكريمات في هذه الفقرة التفسيرية، وإن جاء هذا الإجماع بأشكال وعبارات متعددة إلاّ أنها تلتقي في صميم المعنى الواحد، وقد تميز الشيرازي بإسلوبه السلس الواضح، كما أن الشيخ مغنية استطاع بإسلوبه الجميل نقل المعنى بشكل واضح ومباشر وبسيط، وهذا المنهج أو الأسلوب في الكتابة تحتاجه الأمة في وقتنا الراهن التي أضحت تنفر من أسلوب الكتابة وفق المناهج القديمة، كالذي نجده على سبيل المثال عند الطبري أو القرطبي.